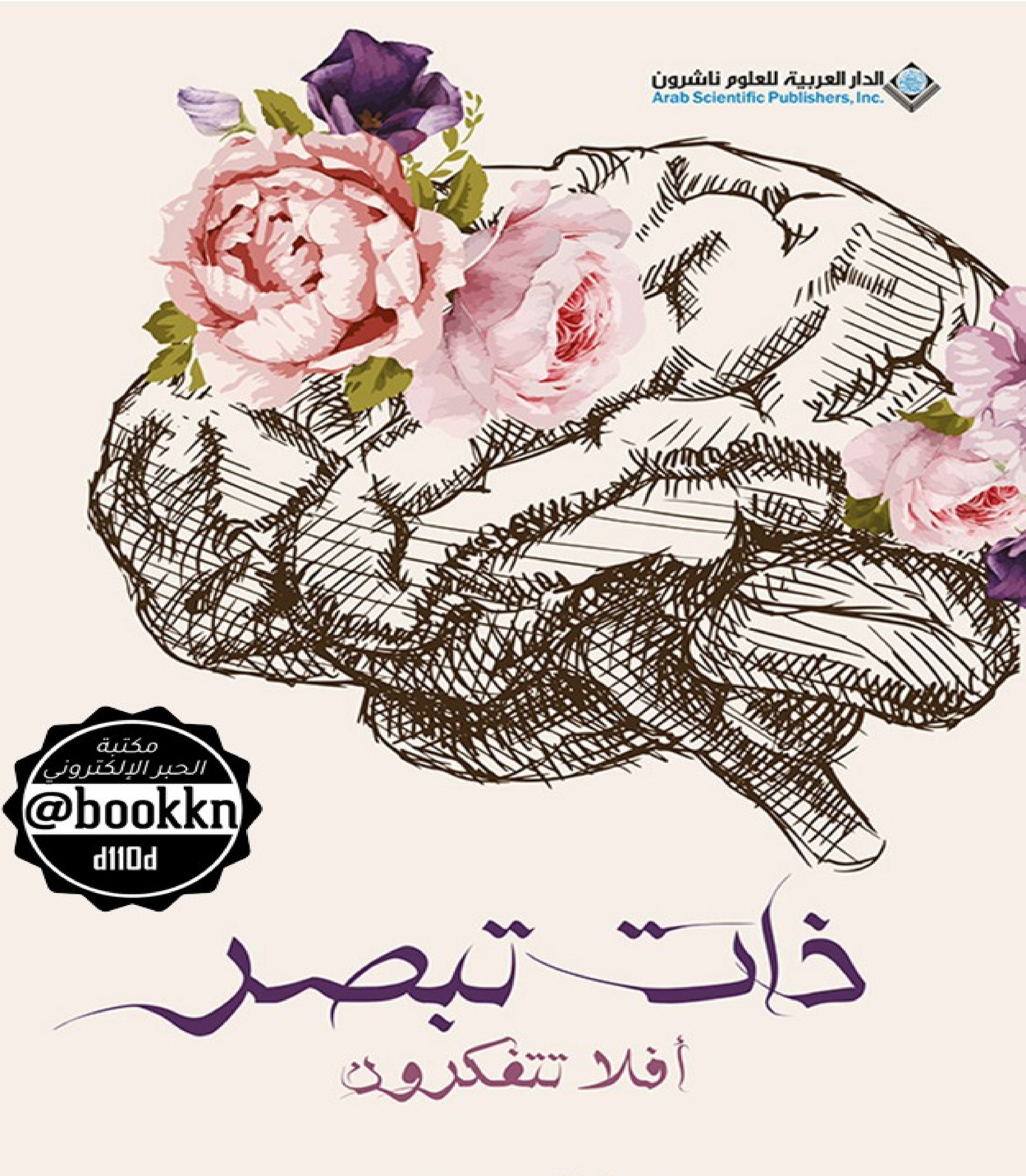
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



ذات تبصر

أفلا تتفكرون

شذا الموبشير

ذاتُ تَبَصُّر

أفلا تتفكرون

ⓒ شذا ناصر عبدالمحسن المويشير، 1437

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المويشير، شذا ناصر عبدالمحسن

ذات تبصر: أفلا تتفكرون. /شذا ناصر عبدالمحسن.

الرياض، 1437هـ

152 ص؛ 14.5 × 21.5 سم

ردمك: 8-1958-02-603-978

1 - المقالات العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي 081 9143/ 1437

رقم الإيداع: 9143/ 1437

ردمك: 8-1985-02-603-978

ذاتُ تَبَصُّر

أفلا تتفكرون

شذا المويشير



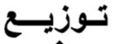
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 1438 هـ – 2017 م

الطبعة الثانية: حزيران/يونيو 1439 هـ – 2018 م

ردمك 978-614-02-2983-9

توزيـــع



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **نوف الحسين**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى عزيزة المويشير والدتي التي بنت حكاية نبيلة انبعثت من رحم الإيمان وهي تحمل بيمينها حبّاً وبشمالها كفاحاً وانتصاراً.

إلى زهرتَي قلبي وطبيبتيّ عبير وأريج المويشير، في الطب وللطب كتب الله أن نكون، فأعاننا الله على كل شيء.

إلى الذي لم يخطئ في الحب أبداً، الصديق والحبيب مساعد الدخيّل، اكتملت كل الحكايات بك.

إلى بيان العقل، الصديقة التي كانت بالقرب منذ أول حكاية وأكرمتني بقراءة كل الكلمات رغم ازدحام الحياة.

Acknowledgment

I am deeply grateful to my great teacher Mrs. Rasheedah Muslim for forcing me to read the first book in my life. You’ve changed everything.

مقدمة

التأمل صورة من صور العبادة، وطقس مقدّس في هذه الحياة. كلّ ما حولنا، إن أصغينا لنداءاته، يدعونا للتأمل والتفكر ليمدَّ عقولنا بما تنشده من آثار تتمخّض عنه.

سأظلم سنوات الطب التي مضت برفقتي إن كتبت أن هذه خلاصة تجربة دراسة الطب، لا يمكن أن تكون كذلك.

الطب حكاية لا تُختصر، تجربة الطب ثرية إلى الحد الذي لا يمكن أن يدركه من لم يعايشها.

طب الأبدان لا يسعى لتعليمك أعراض الأسقام وتشخيصها وفحوصاتها فقط، فالمشوار أوسع من ذلك بكثير، ولكلٍ حكايته في هذا الطريق. لكل من مر فيه الخيار بأن يجعل الطريق ضيقاً، بالكاد يتسع للعلم، أو أن يصيّره واسعاً شاملاً لجوانب قد لا تُختصر ولا تُحصَر.

اخترت أن تكون حكايتي شمولية لا تقتصر على مرض وتشخيصه، اخترت أن أرى ما بين الحكايات وما خلف الشكوى، وأن أبحث في جوهر الإنسان. اخترت أن أذكر أن الله وهب العلم وأخفى عنا الكثير منه وأن هناك الكثير الذي لم يُعرف في هذا الطريق، وهنا يتجلّى وهن الإنسان وقلة حيلته مهما أظهر خلاف ذلك. اخترت أن تكون رسالتي للعلم والعطاء والنفع، وألا يكون الطب عائقاً بل دافع للمزيد في الطب وفي غيره.

وأن أسعى للطبيب الإنسان، بروح ذاتِ تبصُّر.

شذا المويشير

2016

حديث نفس

خطوةٌ أولى[1]

بقدر ما وجدت في نفسي من لهفة للتعامل مع المرضى هذا العام بصورة أكبر وأقرب، كان مقدار الرهبة والخوف من إكمال هذه الخطوة.

طوال العامين السابقين كنت أتأمّل وأشاهد وأطلق لإنسانيّتي العنان لتنتقد، حتى تسجّل الذاكرة، لأتذكّر وأتذكّر وأتذكّر.

كي لا يُنسيني ازدحام الأيام تلك المرأة التي قُدّر لها أن تكون ممّن تلاشت أصواتهم، وتحدّثت أياديهم، بل صرخت أمامنا طوال الوقت دون أن نعير ذلك أدنى اهتمام!

كي لا ينسيني كيف تركتها وعيناي محملتان بالدمع بعد أن حاوَلتْ تقبيل رأسي، وأنا التي أصغرها بما لا يقل عن عقدين من الزمان، فقط لأنّي مضيت معها في حاجة آمنْتُ تماماً أنّها كانت واجباً على أناسٍ فرّطوا بأمانة.

كي لا أعتاد الاعتياد فيسهل في نفسي منظر الألم في أعين المرضى، كي لا أعتاد اعتياد بعض منهم على الذّل مقابل حق، وكأن الذل أقل ثمن يدفعه الإنسان للوصول إلى الشفاء، للتخلص من مرض.

من قال إنّ كرامة الإنسان تتعارض مع الحصول على أحد أعظم حقوقه؟

كي أتذكّر تلك التي جلستُ بالقرب منها، لأسألها ما كُتب أمامي على ورقة استبانة بحث وهي تحمل عشرين عاماً من سلبية وضعف، بتر الجهل يدها فعجزت نزعها من روحها ولم تجد يداً تئد هذا التيه الذي يحيط بها من كل جانب. كأنه بالأمس القريب، كان كل ما يدور في خلدي

حينها كيف تعايشت طوال هذه السنوات مع ضيف ثقيل الظل، جسدٌ يهاجم نفسه دون أن تدرك ما يصنع بها وكيف. لم تعلم سوى اسم بائس تعنون به المرض، وما تبقّى احتمى بالجهل إلى أجل.

كي يبقى ذلك الطفل حاضراً أمامي، ذاك الذي طالما رأيته يمشي في ممرات المستشفى كأنّما أصبحت منزلاً له، بابتسامته التي، ورغم المرض، قرّر ألا يفارقها. كي تبقى أمنيته حاضرة هي أيضاً، عندما سألته: "أي شيء تتمنّاه؟" فأجاب بأنه يتمنى امتلاك ساعة فضية، وكأن كل هذا المرض الذي ينهكه ويحرمه الكثير لا شيء، حتى أنّه زرع أمنياته الصغيرة والكبيرة بعيداً عنه وعن أوجاعه.

عامان كنت أتأمّل خلالهما، أزداد وعياً، أزداد وجعاً، ويتعاظم شعور الأمانة في نفسي ويكبر الخوف. الآن أبدأ سنواتي الإكلينيكية.

وها أنا الآن في عمق مبادئ وضجيج تردد، ما بين ذاكرة متخمة بتفاصيل طبيب إنسان ومَرضى.

رسالة حياة

كلّما مرّ المعطف الأبيض في مخيلتي شعرت بثقل ما في صدري.

ما زلت أتذكر توقي لأول يوم لي في عالم الطب، وما زلت أذكر بعد أن عدت للمنزل بعد انقضائه.

بالرغم من وجود فرحة تتراقص بي، إلا أنّ شعوراً خلّفه ارتدائي للمعطف طغى على أيّ شعور، كان أكبر منّي، أكبر من كل شيء.

كنت أصغر بكثير من أن أرتديه أو أستحقه آنذاك.

مضت الأيام الأولى وشعور المسؤولية يكبر في نفسي، رغم إدراكي بأنّي ما زلت في بدايةِ بداية.

وأنّي أبْعَدُ أهل الطب عن المرضى، وأقلّهم علماً به، لكن حمل الأمانة أبى إلا أن يَعْظُم.

كيف لا ونُصب عينيّ وجع مريض أنهكه ألم، وبكاء طفل عجز الطب عن مداواته، واستلقاء شيخٍ بائس على سرير أبيض لا يمتّ للونه بأي شيء.

كيف لا وأمانة العلم تلاحقني، وتخبر أن الروح هالكة لا جدل، ما لم تنتفع به وتعمل بتفاصيله العالقة في الذاكرة والآتية في طريقها إليها.

أدركت منذ اللحظة التي آمنت فيها ألا سبيل لي سوى الطب رسالةً لحياة، أنّ مشواره لا ينتهي، وأن خطواته لم تكن كغيرها يوماً ولن تكون.

ففي مشواره كثيرُ متناقضات، أمل ويأس، سخط ورضى، تأنٍّ وعجلة، ابتسامة وبكاء.

في مشواره دهشة، دهشة كبرى ما لم يُمِت المرءِ قلباً وروحاً يسكنانه.

ما لم يُمِت إنساناً على الفطرة.

أقصوصة المرض

بيدي قلم أم تفاحة؟

كانت تتحدّث بطلاقة دون أن يتبيّن لمراقبتي الفضوليّة في البداية شيء، لكن ذلك الحديث كله ما كان إلا قبل أن يبدأ الطبيب بتقديم أسئلته لها، حينها فقط تلاشى كل تناغم وجدته في حديثها قبل لحظات.

اتخذت الكرسي بالقرب من مكتب الطبيب مجلساً لها وهي بغطاء وجهها وقفازات تستر يديها. ترافقها ابنتها وقسمات صغيرة فاتنة تستلقي صاحبتها، التي تبلغ من العمر بضعة أشهر، في عربة.

كانت البداية مع قلم، هكذا بكل بساطة تنظر إلى القلم وتعلم أي شيء هو هذا الذي تتعلق عيناها به، وبكل تعقيد لا تملك ما يهبها القدرة على نطق اسمه، رغم حديثها المستمر والمتناسق، فقط قبل أن يلقي الطبيب بكلمتيه وسؤاله بثوانٍ.

لو حملت قلماً وسألتك أي شيء هذا الذي أحمل لربما اعتقدت بأن الأمر نكتة لا أكثر، الأمر عند هذه المرأة أكبر بكثير، كانت في يوم ما يمكن أن تشعر تماماً بذات السخافة التي ستشعر بها إن همّ أحدهم بسؤالها السؤال ذاته.

لكن الوقت غيّر كلّ شيء، حال الأمس لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يشابه حال اليوم.

قد يكون أسهل سؤال توجهه لطفل يبلغ من العمر سنوات قليلة وأنت تمسك بالقلم: "أي شيء أحمل يا صغيري؟".

تعلّقت نظراتي بها بعد سؤال الطبيب لها عمّا يحمل بين إصبعيه، كنت أنتظر سماع الأحرف تخرج من شفتيها سهلة ميسّرة، إلا أن عجزاً ما أصابها، الخيبة ذاتها تتكرر، تعلم أي شيء يسألها الطبيب عنه، تملك المقدرة على الحديث لكنها بكل وجع تعجز عن نطق الكلمة وتسمية القلم.

تكرر السؤال، دون أن يعلق صوت إجابتها بجدران العيادة الكئيبة، وقد بدا أنها تحاول بكل ما أوتيت من جهد دون فائدة تُذكر.

- تفاحة؟

سأل الطبيب.

ضحكت محرَجَة وهي تضع يديها على غطاء وجهها وتلتفت إلى ابنتها فتعاود النظر إلى الطبيب وهي تجيبه بلا.

- كتاب؟

شعرت بشيء ما يقبض على قلبي وهي تجيب بنعم وأنا أتذكر كم مرة قرأت أو سمعت عن هذه الحالة دون أن أتصور هذا الكم من العجز وبشاعة الحال، أن يخيّبك جسدك ويحجبك عن الوصول إلى أسماء الأشياء مهما كانت سهلة وبسيطة كالقلم مثلاً.

- كتاب؟

يعيد الطبيب سؤاله، وتبقى الإجابة ذاتها الأبعد عن الصواب وكأنما تخبرني بأن أيّ قوة عقلية أو بدنية أملكها لإتمام شيء ما، قد تفارقني في غضون ساعات فقط، فلا أجد لي طريق عودة إليها مهما طال زمن التقائي بها أو مفارقتها.

- كتاب أم قلم؟

- قلم.

نطقتها وهي تضحك وما زال الإحراج يخالط صوتها.

علقت نظرات الطبيب بالطفلة في العربة وهو يسأل المريضة إن كانت حفيدتها فأعقبت سؤاله بنعم، في اللحظة ذاتها التي حملتُ معها أمنية صغيرة في نفسي ألا أسمع صوت الطبيب وهو يسألها عن اسمها، بالرغم من أني كنت أفكر حينها بأنه من المستحيل ألا تعرفه، وكان المستحيل أن يعانق اسمها مسامعنا.

أيمكن أن تعجز الجدة عن شيء كهذا؟

نظرَت إلى حفيدتها ثواني وما لبثت أن هزت رأسها وهي تقول بأنها لا تدري ولا تستطيع.

"ذهب محمد إلى السوق واشترى تفاحة".

خيّم الصمت عليها ما إن طلب الطبيب منها إعادة هذه الجملة، وكأنما تذوب كل الكلمات في فمها ما إن تهم بالتفوّه بها. أُعيدت على مسمعها أكثر من مرة إلا أن عجزها هنا كان تامّاً، فلا كلمة من تلك الكلمات كانت مسموعة رغم أن أعماقها كانت تصرخ بمعرفتها.

عدم مقدرتها الواضحة على إعادة الجمل وتسمية الأشياء كان يخبرني بـ conduction aphasia وهو ما كانت تعاني منه هذه المرأة نتيجة جلطة أصابتها في ما يسمّى arcuate fasciculus وهو ما يربط بين منطقتين من مناطق اللغة في دماغ الإنسان وهما Broca's area و Wernicke's area.

بالرغم من أن المريضة كانت تضحك وتتحدث بنبرة تخلو من الحزن إلا أن هذا لم يخفف في الحقيقة من سوء حال كهذا. طوال مدة وجودها كنت أفكر بالاختلاف الشاسع والبشاعة المتفاوتة جداً بين قراءتك عن حالة مرضية في كتاب ودراستك لها ورؤيتها تتمثل في جسد إنسان.

إننا حينها نرى الصراع الحقيقي بين المريض وملاحقة الكلمات لمحاولة النطق بها، نرى الخيبة والخجل مجتمعين في الوقت ذاته، نرى عجز الجدة أن تنادي حبة قلبها حفيدتها.

العجز عن نطق "مالك يوم الدين" خلال ترديد الفاتحة، رغم حفظها لها عن ظهر قلب!

She was a beautiful young girl

كان يدفع كرسيّها المتحرك وابتسامته تعلو شفتيه وهو يدخل إلى العيادة.

الترحيب كان منصبّاً على هذا القريب في البداية وكنت أترقّب أن ينتهي ليتم الانتقال لحال المريضة بسؤالها، الالتفات إليها على أقل تقدير، إلا أن الحديث استمر مع قريبها بتجاهل تام للمريضة التي تقبع على كرسي بائس وهي لا يُرى منها سوى يديها واهتزازات رأسها اللاإرادية وصمتها.

لم ينبس الطبيب المقيم ببنت شفة للمريضة، من يدخل إلى العيادة في تلك اللحظات بجهل منه عن حالة المريضة قد يخالجه اعتقاد بأن هذه التي تجلس صماء وبكماء لا تملك القدرة على الحديث، رغم أن هذا السبب لا ينزع حق المريض من التواصل معه وإظهار الاهتمام له على كل حال.

سرد القريب حكايتها وتاريخها المرضي باللغة الإنجليزية، تتعلق نظراته بها من عبارة لأخرى بطريقة غريبة دون أن يتوقف عن الحديث سوى للحظات، كأنما يستجمع فيها شيئاً من تفاصيل الحكاية من أطراف عباءتها وغطاء وجهها.

عجبت حينها كيف لإنسي أن يكون مثقلاً بأحداث حكاية بهذا العمق وهو يعيشها دون أن يُدع له المجال للحديث والتعبير والشكوى. والعدل لا يأمر بغير ذلك.

تجاهل القريب للمريض اعتقاداً منه أنه سيكون ملماً أكثر، وأن حديثه سيكون أقرب لصحة المعلومات و"أنفع" للطبيب، أمر غير مستغرب، وقد يعتاد الإنسان حدثاً كهذا كلّما أمعن في

الحالات التي ترد إلى العيادات إلا أن الخطأ الأكبر هنا يقع على عاتق الطبيب أكثر منه على قريب المريضة. إنه برأيي أمر لا يُغتفر.

في أكثر من مرة، لحظت الأطباء يتنبهون لأمر كهذا ويقاطعون مرافق المريض عن قصد، ويوضحون له أنهم يرغبون بالسماع من المريض نفسه، ولا ضير في ذلك.

كيف يقدم إليك إنسان بمرض يتملكه لسنوات، يمكث عندك مدة من الزمان لتساهم في علاجه، ثم ما يلبث أن يغادر دون أن تستمع لشيء منه، أو تلتفت إليه حتى، دون أن تقدّر معاناته ولو بتوجيه جزءٍ من الأسئلة إليه.

إن عدم الإقدام على ابتداء الحديث مع المريض وتوجيه شيء من الأسئلة إليه ظلم لمكانته، وهضم لحق من أعظم حقوقه، أيّاً كان الحال الذي يظهر به وبدا به أمامك، وأيّاً كان وضعه الذي ترى. التجربة وحدها ما يعطي للطبيب الحق للانتقال إلى سؤال المرافق بعد عجز المريض عن الاسترسال والتجاوب، حينها فقط يكون الطبيب قد أدى واجباً باحترام صاحب الروح المنهك جسدها، إنها روحٍ كرّمها الله فكيف لعباده أن يهينوها؟

كان الموقف يستفز الإنسانية التي بداخلي، ابتداء بالحديث عنها في حضرتها بضمير الغائب، بلغة لا تفقه منها شيئاً، كشيء لا قيمة لوجوده أو حديثه، مروراً بالتجاهل الذي حظيت به، وكأن الأمر لا يعنيها بأي شكل من الأشكال، وانتهاء بالشكوى التي تُركَت صامتة، والحديث الذي لم يبتدئ، والاهتمام الذي بُتِر من بدايته، حقيقة احترامها الضائع لمجرد أنها ابتليت بسقم كهذا ليتركها على هذا الحال.

لا مجال لأن تعطي الإنسان كامل حقوقه أو معظمها ما لم تدع له المجال للحديث والتعبير عما يشعر به، وعما يمر بـه.

كلّما ازدادت التفاصيل، كانت المخرجات أفضل وأبعد عن الخطأ، كلما ازدادت التفاصيل شعر الإنسان بقيمة أكبر ووجد العناية التي يستحق والاهتمام الذي ينشد. أمور كالتنبه لحركات أجزاء من الجسد اللاإرادية.

إن إيماءات جسد المريض، ونبرة صوته، وانتقاء كلماته هي أكبر وأعمق وأعظم من أن تُتَجاهل. ووجود من يملك توفير المعلومات بصورة أسرع وأسهل لا يعطي الحق لأي كان بغض الطرف عن تلك اللبنات في تعامل الطبيب مع مريضه.

إن كمّ المعلومات والمعطيات التي من الممكن أن يخسرها المرء كطبيب، عندما يقدم على فعل كهذا، لا يُستهان به، والأكبر من ذلك أهميتها، وإن لم تكن بعدد كبير وبدت قليلة، إلا أنها الطريق الموصل للغاية الأسمى من مهنة الطب، وهي المساهمة في العلاج بالصورة المطلوبة.

إن الأمر لا يستغرق كثيراً من الجهد لتضع نفسك مكان من أمامك، لا لإبداء التعاطف والاكتفاء عند هذا الحد، بل لتفكّر في أي شيء كنت سأنتظره ممّن سيكون في الموقف الذي أقف فيه وأنا في حال من أرى أمامي؟

ستختلف الإجابات والتوقعات بلا شك، إلا أن ما سيتفق عليه على الأغلب هو بحث الإنسان عن الاحترام، والتقدير لذاته. كل شخص سينتظر الاهتمام المباشر والعميق الذي يشعره بمكانته وتقدير ألمه ومعاناته.

قدم الاستشاري، وكان يداً في تغيير طفيف للأحداث، بعد أن عاتب الطبيب المقيم لعدم مخاطبة المريضة ولو لمرة واحدة، تحدث معها قليلاً، وانتهى كل شيء، إلا أن بعض الأمور لا تحتمل النفع بعد أن يمضي الكثير من الوقت حتى يُبتدأ بها.

وهو يهم بالخروج من العيادة، ويدفع كرسي قريبته، توقّف ليلتفت إلينا وهو يسأل ما إن كنا نود رؤية الآثار الجانبية التي تركها دواء Phenytoin عليها، وما أن أجبنا بالموافقة حتى رفع غطاء وجهها دون أن يستأذنها أو يشرح لها ما يود فعله، باعد بين شفتيها، وأمال رأسها ليرينا تضخم لثتها ثم الشعيرات التي تركها الدواء في جزء من وجهها.

أعاد غطاء وجهها، ونظر إلينا قبل أن يخرج وهو يضحك ويقول "she was a beautiful young girl" أي: كانت طفلة جميلة.

استخدام كلمة was أو كانت، ووصفها بالجميلة في الماضي كان جارحاً. هي جميلة بصبرها، لِمَ لَمْ يرَ أحد منهم ذلك؟

إنّه يتحسّن

كانت المرة الأولى التي أراه فيها، كان مستلقياً وذراعاه مثنيتان وكذلك ركبتاه، لا يمكنك بسطها.

لا يتحدث لكنه يئن وعيناه شاخصتان، ينظر إلى سقف الغرفة.

شعرت بشيء ما يقبض على صدري وأنا أتأمله، وتذكرت وهن ابن آدم وأنا أسائل نفسي: أي شيء هو الإنسان إذا لم يمن الله عليه بالصحة؟ أي حال؟ أي شقاء؟ أي حياة؟!

بدأ الطبيب التحدث إليه كما يتحدث مع زميل له، كما يتحدث معي. بدأ الحديث معه بطريقة تجعلك تعتقد أن للطرف الآخر كل المقدرة على التجاوب والحديث.

"كيف حالك؟" سأله وهو ممسك بيده، ينظر إلى عينيه وينتظر الإجابة.

كانت المرة الأولى التي أراه فيها، إلا أنها لم تكن كذلك لطبيبه، كان يعرفه جيداً، ويدرك تفاصيل وضعه الصحي الحالي آنذاك.

لم يكن المريض قادراً على الحديث، لم يستطع حتى تحريك عينيه، لينظر إلى صاحب اليد الممسكة بيده، وهذا كله لم يمنع الطبيب من الاستمرار بحديث من طرف واحد دون سماع كلام الطرف الآخر.

ابتسامته وتأمله لمريضه، لا أنساهما.

كانت المرة الأولى التي أدرك فيها معنى أن ترى حقيقة عيني إنسان تترجمان الاهتمام والرحمة والعطف. كانت المرة الأولى التي أرى فيها طبيباً يهتم بحق إلى الحد الذي جعله يحدّث المريض في كل مرة يزوره فيها وهو شبه متأكد من ماهية الإجابة.

هذا الأمر لا يحدث كثيراً هنا، أو لنكون أقرب للصواب والعدل، غالبية الحالات لا تُعامل بهذه الطريقة. فالمرضى الذين في كامل وعيهم وبالغ مقدرتهم على الحديث والاستيعاب كثيراً ما يُقابلون بالتجاهل، والتعامل مع أمراضهم، لا الأنفس التي تحمل أجسادها تلك الأمراض.

من يرى ويعايش الواقع يدرك تماماً أننا نشهد وبصورة معتادة نموذج الطبيب الذي بالكاد يستمع لما ينطقه المريض دون أن يكلف نفسه عناء توجيه نظراته إلى المريض، لا شيء أسوأ من أن تُمثَّل مهنة كالطب بمن نزع من روحه الإيمان بأن الاهتمام بالمريض بصورة إنسانية تليق بالنفس التي كرّمها الله لبنة من لبنات هذا المشوار الطويل، وأبعد من أن تُحبس في زاوية التفضّل أو الأمور الثانوية الاختيارية.

اختر النظر إلى هذا الموضوع من أي جانب شئت، سواء من الجانب الديني أو الطبي أو الإنساني. تتباين الجوانب إلا أنها ستجمع على كون الاهتمام الحق الذي يليق بمكانة الإنسان، لا يمكن أن يكون مجرد خيار.

كان الطبيب يشعر بسعادة وهو يخبر ابن المريض بأن هذا أفضل حال رأى والده فيه.

إنّه يتحسّن!

تساءلت بصمت متعجبة كيف كان الأسوأ يا ترى؟ وفي الوقت ذاته تفاءلت بكلمات الطبيب، وتطلّعت إلى نهاية هذا الشهر ونحن لا نزال في بدايته فقط لأرى كيف سيصبح حال هذا المريض إن كان في تحسّن مستمر.

في الحقيقة، وبعد ذلك اليوم، لم يكن يتحسّن، كنّا نرتاد سريره باستمرار طوال الشهر، والمحزن أن حاله كان يسوء أكثر برغم محاولات الأطباء الدوائية.

لم يكن هناك من هو متأكد من تشخيص المرض، وربما كان الاحتمال الأكبر وربما الوحيد أنه يعاني من "مرض ويلسون".

ويلسون هو مرض نادر يمنع جسم الإنسان من التخلص من كميات النحاس الزائدة فيه والتي تخلصنا الكبد منها في الأحوال الطبيعية، ولكن المصابين بمرض ويلسون يراكمون النحاس في أجسامهم ممّا يسبب الضرر للكبد والدماغ والعينين. أكثر علامة تميّز مريض ويلسون هي ظهور حلقة لونها بني مصفر في حوف القرنية في العين وهذه العلامة كانت غائبة لدى المريض. وما يزيد المرء حيرة أن معظم المرضى ممن تظهر لديهم أعراض عصبيّة – كما هو الحال لديه – تكون هذه الحلقة ظاهرة لديهم وهي ما يسمّى بـ Kayser–Fleischer ring.

إن ضرر تراكم النحاس في الجسم على الدماغ ينتج عنه أعراض عصبية كخلل التوتر العضلي Dystonia والذي كان المريض يعاني منه بشكل واضح وهو عبارة عن تقلص العضلات بشكل متكرر لاإرادي ما يسبّب التواء العضلات وظهور حركات لاإرادية. وخلل التوتر العضلي هو ما يفسر عدم مقدرتنا على بسط ذراعيه وركبتيه وكونها بالوضعية التي شهدت.

لم يتحسّن المريض، كان حاله يسوء، ولم يزل الطبيب يعامله بالاهتمام ذاته من دون أن يفقده سوء حال المريض إنسانيّته، ومن دون أن يشعر أن ما يقوم به أمر لا أهمية له.

في آخر أيام ذلك الشهر، ونحن نقف عند سريره أبدى الطبيب استياءه للممرضة المسؤولة من عدم حلق لحية المريض باستمرار وتنظيف فمه وأسنانه بالشكل المطلوب. اكتفت الممرضة بالضحك ورسم الابتسامات، وبالتبرير بأنهم يقومون فعلاً بالتنظيف الملائم، واستمر الطبيب في الحديث معها وسؤالها عن نوع المنظّف المستخدم.

انتابني شعور غريب ومهيب. التفاصيل التي لطالما بحثت عنها في تصرفات الأطباء مع مرضاهم وتشوقت لرؤيتها أو أثرها تتمثّل أمام عينيّ بصورة أرق وأعظم ممّا تصوّرت يوماً. شعرت به، وكأنه لم يكن مهتمّاً فحسب، بدا لي وكأنه يرى الله أمام عينيه في تعاملاته مع مريضه هذا. كم من الأطبّاء من ينبّه ممرضة لأمر كهذا؟ كم منهم يهتم بالأصل لأمر كهذا؟ كم منهم يحدث مريضه ويقترب من أذنه على أمل أن يسمعه ويستجيب له للدرجة التي تجعله يلحظ أن تقصيراً ما قد حصل في نظافة فم هذا المستلقي أمامه؟

كانت المرة الأخيرة التي أراه فيها. مع آخر يوم لي في ذلك القسم، كان قد حلق له أحدهم بدايات لحيته، وأبدى الطبيب رضاه للتغيير الحاصل، إلا أنه كان يئن ولم يبدُ أنه يتحسّن، ازداد

حاله مع خلل التوتر العضلي سوءاً، كان قد اتخذ حينها وضعية الجنين لشدّة التقلصات والالتواءات. لا يمكنك بسط ركبتيه أو وركيه أو ساعديه. لم يتحسّن، ازداد سوءاً، وما زال الطبيب يمسك بيده، يقترب منه أكثر على أمل أن يسمعه فيستجيب له، يحدّثه كما يتحدّث مع زميل له، كما يتحدّث معي.

يبه أمسك بثوبي

كان من الصعب جداً أن ألتفت إليهم، وإليه بالتحديد.

الكل من حولهم كان يحدّق إليهم إلا أني شعرت بالخجل والحزن.

شعرت بالوهن لوهن ذلك الرجل الذي لم أكن أسمع سوى تنفسه المنهك وهو يصلني كتنهّدات.

تساءلت حينها وأنا أشعر بإحساس غريب يغرقني: كيف تستحيل كل لحظات تنفّس أحدهم تنهدات؟

كأنّما كل شهيق وزفير يصيبان جسده المعتل بالتعب أكثر، وكأن ذرات الأكسجين لا تصيب كريات دمه الحمر سوى بالذبول بدل أن تنعشها وتحييها أكثر.

كان من الصعب جداً أن ألتفت إليهم، وإليه بالتحديد. لكن كان من السهل جداً أن أتصوّره بملامح مشوّشة قبل أعوام طويلة وهو يحمل أبناءه صغاراً بكل يسر، يمشي بهم بل يركض أحياناً. تحمله قدماه مع كل يوم يمضي دون أن يفكّر أنهما ستخذلانه يوماً، دون أن يفكّر أن يديه اللتين حملتا أطفاله حينها، سيضطر أن يدفعهما بمشقة بالغة لتتشبّثا بثوب ابنه رجلاً بعد أن نطق بكلماته له "يبه أمسك بثوبي".

كلّف أمر انتقاله من كرسيّه المتحرك إلى كنبة بهو المستشفى ما يقارب ثلاثة شبّان وهو الذي ربما كان يحمل كل واحد منهم لأمتار عديدة أو ربما لمسافات أطول بيد واحدة دون أن يكلّ. تبادرت إلى مسمعي كلمة أحدهم محدّثاً والده:

"مِشْويْن".

خمسة أحرف سرعان ما أوقعت الحنين في صدري، كدت بعدها أن ألتفت إليهم لأسألهم بحيرة من أي المدن قدمتم؟

هذه الكلمة التي نبّشت في الذاكرة حتى عانقت مدينة صغيرة في شمال هذه البلاد، كلمة لم أسمعها يوماً من أناس سوى من ساكني تلك المدينة ومنزلنا الصغير هنا.

قاطع سيل أفكاري – وأنا بالقرب منهم – صوت هاتفي لألملم حاجياتي وأتوجه نحو الباب الرئيسي للمستشفى.

ركبت السيارة، التفت باتجاه الباب الذي لفظني للتو، ورغم أني أدركت أن أشياء كثيرة تحول بيني وبينهم، إلا أني كنت على أمل رؤيتهم للحظات قليلة.

والآن وأنا في طريقي إلى المنزل، أكتب تحت إضاءة هاتفي. تسترجعه الذاكرة دون أن أعلم كيف هي قسماته أو هيئته. هل فقد شعر مقدمة رأسه أم أن البياض قد كسا كل رأسه؟

كيف تبدو التجاعيد حول عينيه؟ أأفقدته السنوات جزءاً من أسنانه، كما فعلت بكثير من قوّته الليلة؟

تسترجعه الذاكرة، لتخلق بي فكرة تتبعثر لتتكاثر أجزاؤها حتى تغزو كل عقلي وتعتصره.

الكثير من الوهن محشور في زوايا هذا المكان ولهذا ربما يعتقد البعض أنه من المفترض على رواده الاعتياد على وجعه وبشاعته، إلا أنه في الحقيقة لا يتقدّم إلينا بصورة واحدة وبالكيفية ذاتها في كل مرة.

النفس هنا تتعايش مع صور مختلفة من الوهن، الوهن واحد نعم، إلا أنّ صوره شتّى تكاد لا تُحصى!

إن حال الوهن معنا ومحاولاتنا للتعايش مع ما تشهده قلوبنا منه قبل أعيننا، هو أشبه بحال فيروس العوز المناعي البشري، في كل مرة يقوم بتبديل وتغيير مادته الوراثية، حتى يعجز أي دواء عن استهدافه والقضاء عليه.

أنفسنا هي الدواء العاجز أمام صور الوهن المتشابهة والمختلفة في الوقت ذاته، ففي كل مرة يدهشنا الوهن بمقدرته الهائلة على التبدّل والظهور بمظهر لا يشبه ما سبقه البتّة سوى بثلاثة أحرف عالقة.

إن كل صورة من صور الوهن التي مررت بها قد رسمت في الروح أثراً لا تُذهبه أحداث الأيام، وإن عجزت الذاكرة عن استرجاع تفاصيل تلك الصورة، فإن الروح لا تنسى، يتراكم ما تخلّفه تلك المواقف فيها، تصنع شيئاً ممن أكون.

أتبدّل كثيراً مع مرور الوقت، يزداد الإنسان الذي أمثّله وعياً، ويزداد إدراكي بالتفاصيل أكثر مع وبعد كل صورة.

أتبدل كثيراً مع مرور الوقت، من دون أن يلحظ أحدهم ذلك على أغلب تقدير، فما زلت أنا بثلاثة أحرف عالقة بي تمثل اسمي، ما زلت أنا من دون أن أشبه امرأة سبقتني بالأمس.

لماذا تحمل جثة أحدهم معك؟

يحتضنه مقعد السيارة مع قريبه الذي يقودها. يخبره بأن من أمامهما على جانب الطريق سيوقفونه متسائلين عن الجثة التي ينقلها معه في السيارة.

حمله كفّ المرض إلى هلع بشع تعجب لتفاصيله. تُذهَل وأنت تتساءل كيف لبشرٍ أن يحمل مخاوف بعمق كالذي حمله بتفاصيل كأنما تسمعها بلسان صدق وهي لا تتجاوز كونها وهماً على وهم.

كأن لم نتقدّم بخطواتنا إلى الغرفة التي يستلقي فيها، كأنما نزع نفسه من كل ما يحدث حوله. بدت كل الأمور لا تستحق، كأنما هي شيء من عدم.

لم تتحرك شفتاه لصناعة أي كلمة، لم يكن لعينيه نصيب من الحركة للنظر إلى أحد منّا، كجزءٍ من العدم كنّا.

لا أعلم أنزع نفسه أم أن المرض وحده من فعل فعلته به بلا حول منه ولا قوة.

جعله قميصه الأسود يبدو أشد حزناً مما هو عليه، متعلقة نظراته على الجدار أمامه وهو يستلقي على جانبه الأيمن ومع كل محاولات الحديث من قبل الطبيب لم يكن يستجيب، حتى ظننت في بادئ الأمر أنه لا يجد طريقاً لصوته للحديث أو يعجز عن إدراك ما يحدث حوله.

كان من يقف بالقرب منه يحدثنا، يخبرنا عن وجعه، وعما حل به شيئاً فشيئاً، عن كل ما ركنت نفسه إلى عدم الحديث عنه، ليحمله عنه قلب آخر، صاحب حكاية مختلفة نبيلة تستحق أن تُروى في غير موضع.

كان يخاف المرض أو الموت؟

لا أعلم أيهما خشي أكثر، إلا أن كل الأحاديث التي صدرت عنه ومنه لاحقاً تعلقت بشيء وحيد دون سواه، الموت.

"ينقطع عن الطعام والحركة وممارسة الحياة من فترةٍ لأخرى مبرراً ذلك بكونه ميتاً".

"تخاف من المرض؟" سأله الطبيب بعد استجابته لطلب الطبيب بالجلوس.

كلنا في الغالب نخاف من المرض، غموضه وألمه، بشاعة الضعف الذي يذكّرنا به رغماً عنّا، نخاف عواقبه التي لا يُعلم في أحوال كل تفاصيلها، نخاف ونبغض حتى مراحل التخلص منه وعلاجه.

كلنا يخاف طريق مرض لا عودة منه، دون محطات راحة على جانبيه، طريق يختمه الموت مبتدئاً بمتاع غرور.

قد نتصور الخوف من الموت، لكن اعتقاد المرءِ وإيمانه بأنه جثة هامدة، بأنه ميت أمر مختلف تماماً عن الخوف.

توقفه عن الأكل والحركة والحديث لأجل هذا الإيمان، كل هذه الأمور لا يمكن أن تكون كأي خوف طبيعي من الموت.

بدأ الحديث بكلمات بسيطة، كان الأمر مقتصراً على إجابات عن بعض أسئلة الطبيب، كان يتحدث ولم يُغْنِ ذلك عنه شيئاً، لم يخلّصه سماع صوته من فكرة الموت ولم تقرّبه حركات جسده الضئيلة وتنفس رئتيه لحقيقة الحياة فيه.

أمسكت ذراعه بعد استئذاني منه، ووضعت يدي الأخرى بيده لتحريك ساعده، كنت أقوم ببسط ساعده وثنيه باتجاه ذراعه وأنا أشعر بحركة وتوقف يده المتكررة بشكل مفاجئ في كل مرة، تماماً كحركة الدولاب المسنّن.

يحصل لدى مريض الباركنسون (شلل الرعاش) تيبس أو تشنج للعضلات، ما ينتج عنه مثل هذه الحركة عند تحريك الساعد أو مفصل الكوع، كأنما يقاوم الشخص لمنع حركتك في لحظة، وفي

اللحظة التي تليها تتحرك بشكل مفاجئ ثم لا تلبث أن تتوقف وهكذا.

بسبب طبيعة هذا التشنج أو التيبس ومشابهته بحركة الدولاب المسنّن، سمّي بـ cogwheel rigidity.

وقف ببطء، جذعه ورأسه متقدمان للأمام قليلاً، وذراعاه مثنيّتان بعد أن بدأ بالمشي بخطوات متقاربة.

كانت قسماته ثابتة لا تتغيّر أثناء إجاباته، كانت تخلو من أي مشاعر، حتى من مشاعر الخوف القابعة في صدره، لا مشاعر تتبيّن أطرافها في ملامحه.

السبب وراء مرض شلل الرعاش غير معروف حتى الآن لكنه ينتج عن نقص في إحدى الناقلات العصبية وهو الدوبامين المُنتَج من المادة السوداء في الدماغ.

تركنا المريض، وكعادة نظرتي للأحداث، لم تتركني حكايته.

إن التفاصيل التي نخرج بها من الحكايات التي تمر بنا لا تقتصر على الحكايات نفسها وما يظهر منها بشكل جلي.

خلق الله الإنسان وله قدرة هائلة على ربط الأحداث وتحليلها للاحتفاظ بما يمكن منها في أنفسنا لما هو قادم.

الأحداث التي يكتب الله لنا المرور بها لا تكون مجرّدة ولا تُحمَل على ما ظهر منها فقط، فالحكمة تقتضي خلاف ذلك تماماً. أنت المقصود بكل حدثٍ تمرّ به لحكمةٍ ما، أنت لا غيرك. لهذا فإن التفاصيل التي تختبئ خلف الأحداث هي الجوهر الذي يوصلنا إلى شيء ما قد لا يقربنا إليه سوى هذا الحدث.

لا يملك الإنسان أحياناً أن يخلّص نفسه من تسلط المشاعر والأفكار السوداء، لا يملك أن يدفن كل تلك الأفكار

التي تجوب عقله وينتهي كل شيء ببساطة، الأمور لا تسير بهذا اليسر وقت المرض واختلال الموازنة الذي يخرج عن سيطرة الإنسان.

المرض فقد لموازنة شيء ما أو أشياء في جسد الإنسان، ولا يمكن لاختلال الموازنة أن يكون كخلافه أبداً.

قد ينتهي به الطريق إلى الموازنة وقد لا ينتهي.

أدمغتنا تضمر

"هل تضمر أدمغتنا؟".

الساعة الثالثة عصراً، أقف بعد خروجي من القاعة وانتهاء اللقاء، ألتفت إلى صاحبة الصوت بسؤالها المخيف.

ربما كنت سأحب ابتسامتها في موضع غير هذا، إلا أن ابتسامتها وهي تكرّر سؤالها للطبيبة موجعة، كانت لا تصدّق.

بقيت نظراتي معلّقة بها وكان كلّ اهتمامها منصباً على من أمامها وهي تنتظر الإجابة.

قد سمعَتْ الإجابة في الحقيقة قبل ما يقارب النصف ساعة خلال اللقاء، كانت لا تزال تبتسم وربما كانت تتعلّق حينها بأمل أن يُجاب سؤالها بالنفي، أو أن خبراً كهذا كان أكبر من تعابير قسماتها.

الطبيبة على عجل، كانت تهمّ بالذهاب لارتباطها بأمر ما قبل سماع السؤال. بعده نقلت نظراتها إلى المريضة، كانت ملامح الطبيبة آنذاك مزيجاً من مشاعر مختلفة، حتى الآن لا أعلم تحت أي المسميات أدرجها.

ابتسمت الطبيبة في خضم ارتباك قسماتها، وكان من الجلي أنها تدرك أن المريضة قد سمعت الإجابة وفي الوقت ذاته لا ترغب بتأييد سؤالها بـ "نعم" أو هكذا بدا لي على الأقل.

لم تجبها، وردت بعبارة لا تقارب الإجابة.

"هل تضمر أدمغتنا؟" أعادت سؤالها وهي تبتسم، كأنما تنتظر أن يؤكد لها من وثقت به.

"ليس دماغك فقط".

حاولت الطبيبة بطريقة أو بأخرى أن تخبرها بألا تفكر في الأمر من هذا الجانب، لكن كيف لا؟

تساءلتُ هل من الممكن للإنسان أن يفكّر في موضوع كهذا من جانب مختلف أو مشرق حتى ولم يمر على تلقيه لخبر كهذا سوى مدة قصيرة من الزمن؟

عادت بي ذاكرتي إلى وقت اللقاء، أثناء حديث أحد الأطباء ذكر كلماتٍ بدت عابرة لي وربما له، ربما لأننا نعتقد أن أمراً كهذا لا يهم المريض بقدر ما تهمّه الأعراض التي يعايشها وتكون ظاهرة له خلال ممارساته اليومية المختلفة، بغض النظر عما تظهره نتائج أشعة الرنين المغناطيسي بشكل تفصيلي.

في الحقيقة وُجد أن حجم الدماغ يضمر لدى المرضى المصابين بمرض التصلب اللويحي بمعدل أعلى من دماغ الشخص الطبيعي، ويؤثر هذا بدوره على قدرات المريض الإدراكية وجودة حياته.

"ضمور الدماغ".

لم تكن المعلومة جديدة بالنسبة إليّ، لكن مع سماع السؤال من المريضة للطبيبة والابتسامة الغريبة كان الأمر مختلفاً

جداً.

ليس كل ما هو عابر بالنسبة إلينا هو كذلك لدى الغير. وعند الحديث عن صحة الإنسان وما يملكه من هبات من الله فإن الإنسان وحده يدرك قدر ما يملك وثمنه، وحده متلقّي تلك الهبات وصاحبها وهو يشعر بأنه قد يخسر شيئاً منها.

تظن أنك تدرك كل شيء لكنك ما أن ترى تفاصيل حدث أمام عينيك يقع في نفسك الإيمان بأنك لم تدرك حقيقة الشيء حتى لحظة وقوعه.

بالرغم من أن تلك لم تكن المرة الأولى التي أقضي فيها وقتاً وإن قَصُر مع مرضى التصلب اللويحي لكنها حملت مشاعر متفرّدة عما شعرت به فيما سبق.

بعد جلوسي بدقائق قبل بداية اللقاء بدأ الحضور بالازدياد، كان كل واحد منهم مختلفاً بالطبع، إلا أن شيئاً ما جعلهم متشابهين فقط من زاوية واحدة.

معظم من دلف إلى القاعة كانوا يخطون خطواتهم نحو مقاعدهم دون أي عجز أو فقد قدرة واضح. حملتهم أقدامهم وهم في الوقت ذات يحملون معهم مرضاً حتى الآن لا يُشفى.

البعض كانوا يدخلون بعكاكيز، يمشون بصعوبة وتلحظ وكأن رعشة ما تسري في سائر أبدانهم، وآخرون يحملهم الكرسي. هجمات المرض على مدى سنوات سلبتهم قدرة المشي.

مرض التصلب اللويحي المتعدد هو أحد الأمراض المناعية الذاتية، حيث تهاجم مناعة الجسم الجهاز العصبي المركزي وبالتحديد الغشاء المحيط بالأعصاب وهو ما يسمى النخاعين (myelin sheath). لهذا فإنه وبالرغم من أن كل المرضى مصابون بالمرض ذاته إلا أن الأعراض التي تمر بهم ويضطرون لمعايشتها متفاوتة، قد لا تتشابه من مريض لآخر، ويعود ذلك إلى موقع الألياف العصبية المصابة.

لكل مريض حكايته وكفاحه وصعوباته المختلفة التي أوجدها المرض في طريقه.

يدٌ فقدت مهارة الرسم المُبهر، وأخرى تجد غلق أزرار القميص مهمة غير يسيرة.

عين غدت الرؤية فيها غير واضحة بعد أن كانت الدنيا فيها صافية لا يشوبها أي شيء، وأخرى تجعل كل الألوان مكسوّة بالسواد والبياض.

الإنهاك والإجهاد اللذان يمر بهما المريض في مشواره، مثل هذه أمور قد تبدو صغيرة للوهلة الأولى إلا أن ملازمتها للشخص طوال أو معظم الوقت يتطلب بلا شك الصبر العظيم والعزيمة الكبيرة التي تراها في نفوس هؤلاء المرضى.

لم يكن هناك باعتقادي طريقة أخرى مثلى كان يفترض بالطبيب إيصال المعلومة بها، فالمريض أولاً وقبل أي شخص يستحق أن يعلم بصورة واضحة صادقة ما الذي يعنيه إصابته بمرض ما.

على النقيض، فإن البعض أحياناً يتعاملون مع المعلومات العلمية المتعلقة بالأمراض بتجرّد دون تضمين أو تصوّر أنها تتعلق بالإنسان وبمصير الإنسان، فلا تبدو العبارات حينها إلا كلمات مدعمة بدلائل علمية وتجارب وأبحاث فقط مجردة من الإنسانية.

أذكر حين تحدث أحد الأطباء بنبرة ضاحكة في نقاش صباحي عن المرضى، وهو يقول عن أحدهم: بالإمكان منح هذا المريض فرصة ستة أشهر قبل أن يموت.

لا أعلم في الحقيقة أي شيء يدع الإنسان يقرن المرض والموت والمعاناة بحس فكاهي تشمئز النفس منه.

هذا موجع، لا أعلم الدافع إليه، وفي الحقيقة لا أرغب في أن أتفهمه أو أعرفه كي لا أكون في طريقي لتقبّله ولو بنسبة ضئيلة جداً.

التعامل مع الموت مختلف، ويجب أن يكون مختلفاً. فرؤية الموت يقبض أرواح مرضى لك على مر السنوات واختلاف أحوالهم يجب ألا يجعل أمر الموت هيّناً.

لا يعني الأمر أن على الإنسان أن يقيم مراسم العزاء لكل مريض انتصر المرض على جسده قبل روحه، ولا يعني أن يبكي طويلاً عند كل مريض، لكن يكفي للإنسان أن ينزل كل شيء إلى المقام الذي يستحقه. الضحك والفكاهة لما يستحق ذلك والصمت والاحترام لما يجب في ذلك.

روح الإنسان نفخة الرحمن تستحق أن تتلقى الاحترام في كل أحوالها، على الإنسان ألا يضيع جزءاً من إنسانيّته وإحساسه بالآخر بكل سهولة.

حين يُعامل الإنسان فإن خيار احترامه ليس في الحقيقة خياراً، بل حق يجب أن يقدّم، خصوصاً حينما نتحدث عن مريض ومرض.

الطبيب وحده من يتعامل بهذا القرب وبهذه الصورة مع الإنسان في مهنته، لهذا فالحمل ثقيل وعظيم ومن غير السهل أن يحمل الإنسان برفقته على الدوام الحيادية والعدل والاحترام دون تفرقة. ليس من السهل أبداً أن يصون حياة الإنسان.

فأعان الله جميع الأطباء على هذا.

ستكون بخير

في تلك اللحظة التي قرأت فيها محتوى الرسالة عادت بي الذاكرة إلى سنتي الأولى في كلية الطب، إلى إحدى محاضرات علم المناعة، أستمع لكلمات الطبيب وأنظر إلى الرسمة الطفولية على الشاشة أمامي وأنا أحدّث نفسي "إن هذا أسوأ ما قد يحدث لإنسان".

لأشهر عدة استمرّت صديقة تشكو من تغيرات وتصبغات جلدية في منطقة الكاحل، كان الأمر يزداد سوءاً مع مرور الأيام رغم زياراتها المتكررة لطبيب الجلدية المختص بحالتها.

في مرحلة من مراحل العلاج كان هناك شيء من التحسن وما لبث الأمر حتى ظهرت تغيرات جلدية في الكاحل الآخر.

كان الأمر مربكاً قليلاً، ففي كل مرة كنت أستفسر منها عن التشخيص يظهر لي منها بأنه لم يتم التوصل إليه بعد.

في أحد أيام اجتماعنا أبلغتني بأن الطبيب أخبرها بنتيجة التحاليل التي أظهرت ارتفاعاً في الزئبق في الدم.

لم تكن في الحقيقة هذه هي الإجابة المنتظرة، ففي كل مرة كنت فيها أبحث عن ارتفاع الزئبق في الدم لا أجد ما يحل هذه الأحجية.

المقلق في الأمر أن الصديقة بدأت تعاني من أعراض أخرى آنذاك، وفي كل مرة تسأل الطبيب عن ارتفاع الزئبق لا يقدم لها أي إجابة تفي وتليق.

أخبرها لاحقاً بأنه سيتم تحويلها إلى عيادة الروماتيزم ليتم شرح كل شيء لها هناك ثم رفض أن يقدم لها أي إضافات أخرى عما سبق، والتي كانت أبعد ما تكون عن الوضوح.

كنت لا أزال حينها في حيرة، أحاول معرفة العلاقة بين إخباره إياها عن ارتفاع الزئبق وعيادة الروماتيزم.

كانت تعاني من فترة إلى أخرى من آلام في البطن، لديها عقد لمفاوية متضخمة طوال الوقت لأشهر، بدت الأعراض متفرقة ومحيرة وما زال موضوع ارتفاع الزئبق لا يضيف أي فائدة، ولا يعبر عن أي حل، حتى قرأت محتوى تلك الرسالة عصر يوم لا أنساه.

اليوم الذي سبق ذلك اليوم طلبت مني الصديقة مرافقتها إلى المستشفى للحصول على نسخ من نتائج تحاليلها بعد أن اقترحت عليها مسبقاً أن أعرض نتائج تحاليلها على طبيب في مستشفى آخر، بما أن الغرابة والغموض كانا يلفان تفاصيل حالتها، ولا أحد في الحقيقة ينوي أن يوضح أكثر.

اعتذرت عن مرافقتها لارتباطي مسبقاً بموعد في اليوم التالي، حينها شعرت بالسوء لعدم مقدرتي لمرافقتها، لكني الآن أحمد الله أنه لم يكن باستطاعتي ذلك.

كانت الكلمات التي سمعتها هي هناك لحظة استلامها لنسخة من نتائج تحاليلها ستحمل بعداً آخر في حال تواجدت، ربما كنت سأدخل في جدال عقيم مع طبيبة فقدت إحدى أثمن مهارات الطبيب الحكيم، كنت في غالب الظن سأفقد أعصابي فمحتوى الرسالة كان موجعاً جداً، مؤلماً حد تناثر الدمع على حين غفلة، حد تمنّي الصراخ والهروب من الحقيقة، فكيف بسماع ذلك من طبيبة؟

لا أعلم إن كانت تدرك وقع كلماتها التي قرأتها في رسالتها، وأغلب ظنّي أنها لا تعلم حتى الآن، كانت تكتب لي بأسلوب غير قلق، ببساطة تنقل لي ما تم إخبارها به، كان بسيطاً لا ينم عن إيصال خبر مفزع: "ليس لديك ارتفاع زئبق في الدم، طبيبك كان يقصد الذئبة، مرض الذئبة الحمراء" وبلهجة وطنه كان يطلق على المرض "الزئبة" والتي قد يتوهم الإنسان بأن ما سمعه هو الزئبق بكل بساطة. صديقتي كانت تسمع هذه الكلمة طوال الوقت لأكثر من موعد. كيف يحدث ذلك؟

تلك الصورة التي تذكرتها عندما رأيتها في سنتي الأولى في الطب وأنا أحدث نفسي: "هذا أسوأ ما قد يحدث لإنسان" كانت رسمة طفلة لجسد شخص مصاب بالمرض، رسمت فيها الأعضاء التي يهاجمها المرض، كانت في الحقيقة تلك الأعضاء هي كل الأعضاء تقريباً. لهذا كنت أحدث نفسي بأن هذا أسوأ ما قد يحدث لإنسان. كانت الرسمة بريئة بطفوليتها، بشعة بما تحتويه.

لا أعلم كيف لطبيب أن يلقي بتشخيص كهذا على مريضة له دون أن يتحقق فعلاً من حقيقة إصابتها به، والمصيبة الأكبر تلك التي لم تستطع أن تغلق فمها بحكمة أو حتى تتحدث بحكمة وهي تمد أوراق التحاليل التي طلبتها الصديقة لتقول بكل لامبالاة إن الأمر لا يتعلق بالزئبق وإنما هي الذئبة الحمراء.

لهذا المرض حكايته الطويلة، حتى الآن لا شفاء تام منه، مرض مناعي ذاتي كبقية الأمراض المناعية الذاتية التي لم يُكتشف حلٌّ للغزها حتى لحظة كتابة هذا الفصل.

كان الخبر فجيعة بالنسبة إليّ، كان أسوأ مما انتظرت وأبعد بكثير مما توقعت قراءته.

بدأ الدمع يجتمع في عينيّ بغزارة يحجب عني رؤية رسالتها الممتلئة بالفجيعة آنذاك.

بكيت بوجع الصديقة وأنا أفكر: أيّ شيء ينتظر هذه الحبيبة؟ بكيت وأنا أتذكر كيف ترافقنا منذ أن كنت في الثامنة وكانت في السابعة من عمرها، وكيف مضت السنوات سريعة، وكيف آلت بنا السنوات إلى هذه اللحظة التي لم أتصور يوماً أن تحملني وإياها وهي تحمل عنواناً كهذا.

بكيت لعزيز حينها، كنت بحاجة لئلا ينقطع البكاء وكل تلك الأفكار تتسابق وعقلي مزدحم بها، تتعارك داخل عقلي المضطرب، ألعنها وأنا أمقت أي شيء دفعها للتجمهر على صفحة عقلي ولا أصدق.

بلا شك كنت قد درست عن المرض أكثر من مرة خلال دراستي، إلا أني عدت مرة أخرى للقراءة عنه حينها وأنا في غمرة بكائي، أحاول أن أباعد الدمع كي أقرأ ما هو أمامي على الشاشة.

كنت أقرأ وشيء ما يتمزق فيّ، أقرأ وصورة الصديقة أمام عينيّ لا تفارقني.

مضت مدة قصيرة ذهبت بعدها بتقاريرها إلى طبيب أثق جداً برأيه، شرحت له حال الصديقة، ومددت له الأوراق الخاصة بها طوال المدة الفائتة بارتباك، أنتظر بخوف أن يطلب مقابلتها، أو يخبرني أن عليها أن تبدأ العلاج سريعاً.

كان كل شيء مختلفاً، بعد أن ذكرت له كل تفاصيل أعراضها وبعد اطلاعه على نتائج تحاليلها أخبرني بكل هدوء بأنه وفقاً لما سمع مني وما قرأ فإنه لا يمكن أن يتم تشخيصها بالذئبة الحمراء لوجود الأعراض المذكورة من قبلي ونتائج التحليل هذه، كان يحدثني واثقاً وهو يحاول التأكد بأنه لم يكن هناك أشياء أخرى لم أذكرها.

هذا ليس مرض الذئبة الحمراء، طلب مني بعدها أن تزور طبيباً أوصاني به لأخذ خزعة أخرى من كاحلها لعمل فحوصات جديدة والتأكد أكثر ومعرفة سبب وجود ما تعاني منه.

لا داعي لزياراتها لطبيب الروماتيزم، كان حديث الطبيب الأول لها هباء، وحديث الطبيبة بعدها استهتاراً سيئاً وقلة إحساس بمسؤولية.

لم تكن سليمة بالتأكيد، إلا أن الصديقة بخير، ستكون بخير بحول الله.

تعظم الرغبة فينتفي المنطق

ادعى أحدهم أن بإمكانه معالجة النزيف في دماغه عن طريق إبر تجعل الدم يخرج عن طريق بوله.

كان يحكي ما حدث له، وانتقل إلى ما فعله به أحد الدجالين.

للأسف أمثال هذه الحكاية تتكرر في العيادات، وهي ليست حادثة نادرة.

المصيبة لا تكمن بوجود أمثال هؤلاء، بل بجهل الناس بمن يتاجرون بصحتهم وأرواحهم. المصيبة تبقى حتى يعي المرضى مدى دجل هؤلاء وحقيقة تلاعبهم ومدى زيفهم.

الأمر مؤسف بحق، فالصور ذاتها تتكرر في قوالب حكايات مختلفة بعض الشيء، إلا أن فيها الكثير من الشبه، جميعها تصب في تجارة الأبدان من قِبَل من باعوا ضمير الإنسان فيهم ليكسبوا المال بغير وجه حق.

المؤلم أن المريض كان يتحدث دون أن يقصد اتهام هذا المتلاعب بشيء، كان يظن أن ما قام به تجاهه هو أحد ممارسات الطب في الحقيقة، خصوصاً أنه يشاع عنه بأنه قد تدرب في ألمانيا ومتخصص بعلاج مثل هذه الحالات.

الكثير يصدقون أمثال هذه الخزعبلات، يدفع المريض الآلاف على كل جلسة للإبر التي بدورها تزيد كمية البول لديهم ويزداد معدل زيارته لدورة المياه ليخيّل إليه أن نزيف الدماغ في الحقيقة في طريقه للهروب عن طريق البول.

أحدث والدتي أحياناً باستغراب عن حكايات كهذه، حكايات الكذب والاحتيال والوهم، أخبرها أن بعض التفسيرات والتعبيرات غير منطقية بالأساس وفيها استهتار بعقل الإنسان، كان ردها أن هذا قولي لأن الله وهبني العلم وجعلني في مشوار الطب إلا أن الكثير قد لا يفكر في الحقيقة بضرورة وجود آلية معينة لعمل الأشياء في جسد الإنسان، مثل حكاية نزول النزيف مع البول، قد لا يهم المرضى عدم وجود الوضوح الحقيقي ويكفي أن يتم إخبارهم أن شيئاً ما سيعالج ويذهب ما فيهم من مرض بطريق سريع بغض النظر عن كون الأمر منطقياً أم لا. الأمر ليس عبارة عن حدوث مفاجأة لا تفسير لها، لكل شيء يحدث في جسد الإنسان آلية معينة وإن لم تُعرف تفاصيلها.

أمثال هؤلاء المرضى للأسف يصرفون الأموال بمبالغ موجعة.

يتضمن التعامل مع هؤلاء في أحوال كثيرة السفر إلى دول مجاورة وتحمل أعباء السفر، إضافة إلى الأموال التي يضعونها في أيدٍ نُزعت الأمانة منها، وكل ذلك بهدف العلاج، ووعد العلاج.

الكي هو الآخر أصبح تجارة من لا تجارة له، هناك من المرضى والمصابون بحالات مرضية خطيرة جداً يخرج من رعاية المستشفى ولو لأيام لزيارة أحدهم ليعالجه كما يزعم بالكي، ليعود مرة أخرى إلى المستشفى لاستكمال رعايته الطبية التي قد لا ترضيه لأنها لا تقدم له الأمل الزائف، بل الحقيقة التي من المفترض أن تكون أمام عينيه فقط.

البعض يشير إلى أن الرسول أمر أو أوصى بالكي، أو ما يشابه ذلك، إلا أنه في الحقيقة قد نهى عنه ولم يحبّب فيه كما ذكر في صحيح البخاري: "وأنا أنهى أمتي عن الكي".

الازدحام يزداد عند من يدّعون العلاج السريع الهيّن اليسير وإن زاد مبلغ التجارة فيه، وبالمقابل يجد المريض الطب المبني على علم حقيقي يقدم له حقائق واضحة، ولا يعده بوعود خيالية وسرعة شفاء هائلة. ولهذا يميل الإنسان إلى ما يعطيه أملاً أكبر بالشفاء، وإن كان أقرب ما يكون للزيف أو بالأصح هو الزيف ذاته.

يميل إلى صاحب الوعود التي لا تُصدّق وإن هيِّئ له ذلك وإن حاول الكثيرون إيهامه بها.

الطب يعطي المريض توقعات ومعلومات واقعية قدر الإمكان مبنية على تجارب سابقة ومرضى مروا بالحالة ذاتها، الطب لا يتعمد خداعك ولا مصلحة له في ذلك، ومن غير أخلاقيّات الطب أن يوهم الطبيب مريضه بأن هناك أملاً كبيراً لشفاء قريب في بضعة أيام في حين أن الطب في الحقيقة لم يجد علاجاً شافياً حتى هذه اللحظة لمرض ما.

الطب مع المريض، وقد يراه المريض في أحوال عدوه الذي يُعجزه، وهو على فراش المرض، وكأن رسالة الطب لا تقارب شفاء الإنسان، وكأنها لا تقتضي إلا أن يكون الطبيب ضد مريضه.

يكثر الدجالون كلما كثر المصدِّقون. المرضى الذين لا يرتضون سوى الجهل تجاه سبل العلاج الحقيقية والممارسات الصحيحة السليمة سيركضون وراء أهواء تجار الأبدان الذين تجدهم في كل مكان تحت مسمى العلاج الشعبي أو غيره.

هناك أمراض بالطبع لم يوجد لها حتى الآن أدوية معالجة بشكل نهائي تقضي على المرض، إلا أن هناك أدوية من شأنها التخفيف من حدة المرض وتحسين جودة حياة المريض. هذه الأمراض هي في الغالب الهدف الأساسي لهؤلاء التجار.

استهداف المرضى الذين يسألون أطباءهم في كل زيارة عن علاج سريع ونهائي للقضاء على أمراضهم التي لا يوجد لها حل شافٍ بعد ومقابلة أطبائهم لهم في كل مرة بالإجابة ذاتها، بالحقيقة ذاتها. هذه الفئة من المرضى باعتقادي أكثر عرضة للانجراف وراء كذب مدعي توفر العلاج لأن المريض حينها لا يجد ما يرغب فيه بكل ما أوتي من تمنٍّ وحلم عند طبيبه.

أمثال هذه الحالات المرضية هو التصلب اللويحي المتعدد والسكتات الدماغية وغيرها.

ما وُجد الطب إلا لخدمة المريض، لا مصلحة لأحد أن يخبئ عنك العلاج الشافي لمرض أحدهم إن وُجد. هناك سعي دائم لاكتشاف سبل العلاج الشافية لمعظم الأمراض المنتشرة. الطب مع المريض، والطبيب معه، ولا يمكن أن يكونا غير ذلك.

قبلة رأس وإشارة يد

همّت بتقبيل رأسي، شعرت بالضيق حينها والدمع يجتمع في عينيّ.

قبّلت رأسها، لن تستطيع سماع صوتي لو قلت لها إن محاولة تقبيلها رأسي سيجعل الأمر أسوأ بالنسبة إليّ.

ذهبت وصورتها عالقة في ذهني، مضى ما يقارب الثلاثة أعوام على رؤيتي لتلك المرأة وهي تحاول أن تجعل يديها تتحدثان دون جدوى. كانت تبدو يائسة من أن يساعدها أحد في حل ما وقعت فيه من عدم معرفة أو فهم نظراً لأن أحداً لا يفقه لغة تتحدث بها. لغة يديها التي قد تبدو للوهلة الأولى مجرد عبث باليدين، وحركات عشوائية لا تفيد بشيء.

لم أكن أعلم أي شيء من لغة الإشارة آنذاك، لم أكن أفقه سوى الإشارات المتعارف عليها، إلا أن الأمر لم يستغرق الكثير من الجهد لمعرفة ما تريد.

كان يتطلب الأمر الوقوف أمامها وصب اهتمام شخص واحد فقط بها لدقائق، لتنتهي محاولاتها التي لم تجدِ مسبقاً لإيصال ما تريد إيصاله.

أحياناً يفترض البعض بحكم مسبق بأنهم لن يفهموا أي شيء من الصم والبكم الذين لا يتقنون سوى لغة الإشارة للتحدث. والبعض يفترضون بأنهم أشخاص ضعفاء يستحقون الرحمة ولا يستحقون محاولات أن يفهموا ما يرمون إليه وما يرغبون به، بالرغم من أن هذه الأمور تتطلب في أحوال بسيطة جداً القليل من الرغبة في المعرفة والمساعدة فقط.

كرهت جداً أن تحاول تقبيل رأسي لمجرّد أني مضيت لها في حاجة صغيرة لم تستغرق مني وقتاً طويلاً. كرهت ذلك لأني أعلم أنه ليس من المفترض أن يكون هناك من يحمل الفضل لها للمساعدة، بأني لم أفعل ما أفعل إلا لأغطي التقصير الحاصل؟ لماذا لا يوجد في مستشفى كبير كهذا أي شخص واحد لمساعدة من لا يجيدون سوى لغة الإشارة للتواصل. ماذا يصنع هؤلاء حين لا يحضر معهم قريب منّ الله عليه بنعمة الصوت والكلام والسماع؟ لماذا تُجعل هذه الفئة معتمدة لا يمكنها أن تستقل حتى في أبسط أحداث أيامها؟

هؤلاء يتعرضون للكثير من المصاعب بلا شك في مختلف جوانب الحياة في بيئة لم توفر لهم ما يعينهم على إكمال النقص الذي ابتلاهم الله به. المستشفيات هنا أحد أهم الأماكن التي لا تساند المريض الأصم بل تنتقص منه وتجعل شكواه الحقيقية ومعاناته مختبئة حين يعتقد الفريق الطبي بأنه لا فائدة من محاولات الفهم، بأنه من غير الممكن أن يتم التواصل في ظل غياب معرفة لغة الإشارة أو غياب مترجم لهذه اللغة.

لماذا نضخّم شعور الحاجة، ونزيد من مساحة الحاجة بأيدينا بالرغم من أن المستشفيات والجهات الأخرى تملك أن تحد من كل هذا. من حق الإنسان الأصم أن يُعامل كغيره في الجهات الحكومية والخاصة على اختلافها وهذه المعاملة لا تكون إلا إذا تم فهم وإدراك ما يود قوله، إلا في حال كان هناك تواصل وافٍ يمكّن الطرف الآخر من فهم كل الحكاية.

طقوس أثيرة

كانت تحدّثني بلطف شديد وتدعو لي.

لساعة كاملة لم تتذمر أو تبدي استياءها وأنا أستفسر عن كل الأشياء التي قد يبدو شيء منها مهماً والكثير الذي قد لا يحمل أي أهمية بالنسبة إليها.

كانت تدرك هي وابنتها أني لن أداوي أو أقدّم الرعاية الطبية، كنت في الحقيقة طالبة تحاول التدرب على الإتقان واكتساب أكبر قدر من المهارات الإكلينيكية في خضم وجودها في هذا البحر المسمى طباً.

كانتا تدركان ذلك ورغم المرض والوهن إلا أنه كان مرحّباً بي وبشدة، كأنما أزور منزلاً لهما لا سريراً أبيض بين عشرات الأسرّة في مكان يحمل مختلف الأمراض، حيث يجمع الخوف والحزن والوجع والإنهاك والفرح أيضاً في أحيان أخرى.

كنت أتأملها وهي تخبرني عمّا تشكو منه، أتأمل نحول جسدها الشديد وكيف جعلها تبدو هشة يحيطها الوهن من كل جانب. تشعر بأنها ستتحطم ما أن تمس يدك جزءاً من جسدها.

كانت محاولات سؤالها عن بعض الأمور في تاريخها المرضي غير مجدية، التفتُّ إلى ابنتها لتساعدني في الإجابة من وقت لآخر.

إجاباتها في الحقيقة مضلِّلة بعض الشيء. من المعتاد أن تشعر بشيء من التيه عند سؤال كبار السن وأنت تحاول أن تسترسل في كتابة التاريخ المرضي مما تسمع، تجد نفسك تتوقف بصورة متكررة.

في اللحظات التي تحاول أن تحسن من أدائك تجد نفسك عالقاً في محاولات إيصال معاني أسئلتك التي قد تبدو غريبة بعض الشيء، وقد يظن المريض أنها مجرد إضاعة لوقته قبل وقتك.

كبار السن في أحوال يشعرونك بشيء من التيه منذ اللحظات الأولى التي تسأل فيها عن السبب الذي قدم بهم إلى المستشفى في هذه المرة، عن المشكلة الأكبر التي دفعتهم لمثل هذا الحضور الواهن في مكان كهذا. يبدأ حينها البعض بالشكوى من كل شيء بطريقة لا ترشدك بقدر ما تزيد الغموض في نتاج عقلك من أفكار. ما أن تهم بكتابة شكوى حتى تنهال ثانية وثالثة ورابعة دون أن تدري أيها يتعلق بصورة مباشرة وواضحة بزيارة هذا المريض المستلقي أمامك في هذا اليوم. تجد المريض يشير إلى يديه منتقلاً إلى صدره ثم رأسه وبعدها إلى بطنه، ويذكر لك أنه يعاني من آلام في الظهر كذلك وشعور غريب في قدميه، حينها يراودك شعور بأنك خرجت من هذا كله فارغ اليدين. بالطبع للخروج من هكذا مشكلة تكون بحاجة لأن تدرك ما يحدث، بأن تحاول توضيح الأمور أكثر والوصول إلى النقطة الأهم من هذا كله، مع التكرار سيأتي التدريب بثماره بلا شك. الأشياء الثمينة لا تقدم إلينا بسهولة على أي حال. وأحد أثمن الأشياء التي يمتلكها الطبيب هي مقدرته على معرفة ما يشتكي منه المريض ليبني عليها احتمالات التشخيص والتي بدورها ستساعد في العملية التشخيصية والعلاجية ككل.

في البداية وربما حتى النهاية كان الأمر مشابهاً بعض الشيء، وكان من المتوقع أن يحدث الارتباك حين الاقتراب من حالة شخص كبير بالسن في مثل مجتمعنا لمستواي من التمرس.

برغم هذا الارتباك كانت مستعدة لتقديم ما يمكنها لمساعدتي، ما أن طلبت الإذن منها لفحصها أمسكت بأزرار ثوبها بيديها النحيلتين جداً، الواحد تلو الآخر، كي تعرّي لي جزءاً من صدرها، تدعوني وتساعدني، كأنما تأخذ بيدي لفحصها.

لم أكن لأبدأ بمنطقة الصدر في بداية الفحص على أي حال، إلا أن ما قامت به من صنيع صغير تجاهي، تقبلها وانفتاحها بالرغم من الألم الذي تعاني منه، دعْوَتُها لأهم بفحصها بكل يسر، كل هذه الأمور كان لها من الأثر نصيب في نفسي.

أن تُشعر المريض أنك مهتم به، بتفاصيله، مهتم لأن تمس جسده في مواضع مختلفة فقط من أجل أن تجد العلة المختبئة، حركاتك التي قد تبدو مألوفة له في أحوال وغريبة بعض الشيء في

أحوال أخرى أو حتى مضحكة، كل ذلك يُشعر المريض بأنك قريب مهتم. هذا أحد الأمور التي أعتقد بأنها تساهم في بناء ثقة الإنسان كمريض بالطبيب أمامه. كيف يقوم بالفحص، كيف يستأذن المريض لفحصه، ماذا يخبره أثناء فحصه له، وأي المشاعر تحيط بهذا الطبيب وهو يحدث مريضه. كل هذه التفاصيل هي أحد أسس علاقة الطبيب بمريضه وثقته به برأيي.

الطبيب يحظى بعلاقة فريدة مع مريضه، الثقة المبهرة والقوة التي تكسبها هذه الثقة للطبيب، وبالمقابل قد يكون هناك الكثير من الوهن الذي يشعر المريض به. هذه الثقة هي التي تصنع كل الفرق وقد تجعل المريض يرضى بذلك الوهن ما دام هناك من يستحق أن يترك بين يديه أثمن وآثر ما يملك، حياته وصحته بعد توكله على الله سبحانه وتعالى.

ترافقني دائماً ذكرى كلمات الطبيب Ibraham Verghese ما أن تزورني ذكرى هذه المريضة وكيف كانت تمد يدها لي لأفحصها. حديثه الذي لا أنساه وأحرص على العودة إليه كلما اشتاقت نفسي لسماع ما يرضيها عن علاقة الطبيب بمريضه، كلما شعرت بشيء من الخيبة من الممارسات التي أشهدها أحياناً. كانت كلماته كوقود بالنسبة إليّ، الحكايات التي ذكرها بالتحديد. ذكر بأن طلابه يحبّون دوماً سماع إحداها، ولا شك بأن حكاية كتلك من شخص يؤمن بمدى عمق وأهمية علاقة الطبيب بمريضه، ممن دفعه الإيمان لأن يمارس ما يرضي الضمير الإنساني، هي حكاية ذات متعة وفائدة.

الاهتمام الصادق الذي يشعر به المريض يصنع كل الفرق، الاهتمام الذي يجعله يتمسك بالأمل رغم كل شيء ويمتلئ طمأنينة لأن هناك من يؤدي أمانته كما ينبغي.

الطبيب إبراهام متخصص في الأمراض المعدية يتحدث عن فحص المريض السريري معتبراً إياه طقساً يمارسه الطبيب مع المريض، وما أفهمه دوماً من حديثه أن هذا الفحص هو أحد الطقوس التي تملك أن تؤثر بطريقة أو بأخرى في العملية العلاجية للمريض، أحد الطقوس التي مع تقدم التقنية واستخدام الآلات والأساليب المتطورة في الرعاية الطبية رأى البعض أنها ذات أهمية أقل، وبذلك تتضاءل عملية التفاعل المباشر بين الطبيب والمريض ومنها تنحدر العلاقة المطلوبة للوصول للثقة والمعنى العميق لهذه العلاقة. هذا لا يعني أن هناك من المرضى من يعتقد بأن كثرة استخدام أساليب التشخيص التقنية سواء لهدف واضح أو من دون هدف يعني أنه يتلقى الرعاية الطبية اللازمة، وهذا ما قد يجعل جهات القطاع الخاص تستغل هذا الأمر.

في سنواته الأولى من الممارسة في تخصصه كان تحت رعايته في ذلك الوقت مجموعة من المرضى المشرفين على الموت بسبب تقدم مرض الإيدز (نقص المناعة المكتسب). كان يشهد بكل أسف المراحل الأخيرة من حياة هؤلاء والطب آنذاك عاجز عن أن يجمّل الواقع لهم ويحسنه.

متحدثاً عن ذلك، ذكر الطبيب حكاية أحد هؤلاء المرضى. كان يوماً بعد آخر يذهب ليقف قريباً من المكان الذي يستلقي فيه المريض، يجد عائلته بجواره ولا يدري في الحقيقة ما الذي يمكن أن يقدمه له ليصنع له أي فارق. نظراً لأن الطب آنذاك توقف عند تلك النقطة أو ما قبلها، وبسبب عجزه عن تقديم المزيد كان الطبيب إبراهام يمارس طقوس الفحص السريري مع هذا المريض.

الطب؟ لا يجد أي فائدة من ذلك في حال كحال هذا المريض، يُعلم ما حل به، لكن لا حل في تلك المرحلة لما يعاني منه سوى انتظار الموت. إلا أن ذلك لم يثنِه عن ممارسة هذا الطقس لأنه رأى أن تأديته هي أقصى ما يمكن أن يُقدّم لمريض كهذا. كان بحسب ما يقول يقوم بشكل مستمر بفحص رئتيه، وقلبه، وبطنه.

في آخر يوم من حياة ذلك الشاب، ساعات فقط كانت تباعده عن الموت. أخبرته والدة المريض بأنه لم يستجب اليوم لأي شيء للساعات 12 السابقة، وفي أثناء حديثه لها تبين أن المريض يحرك يديه باتجاه لباسه، وعندما تعلقت نظرات الطبيب بحركاته ليرى ما يريد أن يصنع، وجد أن يديه تتجهان للباس نومه محاولاً أن يعرّي صدره للطبيب؛ كان يريد من الطبيب بكل بساطة أن يقوم بفحصه. ربما كان يرى في ممارسة ذلك الطقس قيمة وأملاً ومعنى رغم أن الطب لا يرى بأن ذلك – في حالته تلك – يحمل أي معنى وقيمة.

طبيب أم جلاد؟

بعد أن قاربت على الانتهاء وشارفت على مغادرة الغرفة سألني ما إن كانت المعلومات التي حصلت عليها من خلال الربع أو النصف ساعة السابقة ستستخدم باسمه بأي حال، أخبرته بأنه من المستحيل أن يكون ذلك، لا يحق لأحد الاطلاع على هوية المريض مع تفاصيل حالته سوى الفريق الطبي، رد حينها بكلمات غريبة وهو يخبرني بأنه كان قلقاً من أن أخبر الهيئة بما سمعت.

لم أطل الحديث، أكدت له إجابتي الأولى وأنه لا علاقة لأحد هنا بمحاسبة المريض على مثل هذه الأمور ثم غادرت المكان.

قد يبدو أن الطبيب متطفّل على أدقّ تفاصيل حياتك بأسئلته إلا أنه أبعد المتطفلين عن أن يسبّب الضرر لك أو يسمح لما يحمل هو عنك أن يُعامل بسببه خارج إطار العملية العلاجية. هذا أبعد ما يكون عن أخلاقيات الطب.

كل سؤال يُسأل مرتبط بالتوصل إلى تشخيص المريض ومعرفة سبب ما يمر به من أعراض، والذي قد يبدو تطفلاً هو ليس بدافع الفضول في الحقيقة، ربما الفضول لمعرفة التشخيص نعم، لكن لا علاقة لذلك بالفضول لمعرفة تفاصيل حياتك الشخصية فقط للرغبة في المعرفة دون سبب آخر. تلك التفاصيل التي قد لا يكون المريض قد تحدث عنها مسبقاً لأقرب المقربين إليه.

الأسئلة التي تندرج تحت قسم التاريخ الاجتماعي ربما تكون أكثر ما يضايق البعض لأنها تعد معلومات خاصة من الممكن ألا يرغب المريض بالحديث عنها ومشاركتها، كوجود علاقات خارج إطار الزواج، وشرب الخمر وتعاطي المواد المخدرة. ولا يخفى بأن البعض من الممكن أن يوبخ السائل لأنه يعتبر مثل هذه الأسئلة إهانة لشخصه وتشكيكاً في كونه إنساناً صالحاً، وطعناً في

أخلاقياته. الحقيقة ليست كذلك، بعض الأمراض لها علاقة بمعرفة إجابات هذه الأسئلة ومن غير الأمانة ألا يسأل الطبيب عنها فقط لأنه شعر بالإحراج، أو خوفاً من أن تُفهم من قبل المريض بصورة خاطئة ومهينة.

حين تقدم إلى المستشفى فإن الطبيب في الحقيقة ليس موجوداً للحكم عليك أو أن يقرر ما إن كنت إنساناً صالحاً أو خلاف ذلك، بالإضافة إلى أنه من غير المنطقي أن يطالب البعض الأطباء وهو يوبخهم بأنه من الواجب أن يحترموا هيئته الدينية على سبيل المثال، وأنه من غير الممكن أن تصدر مثل هذه الأمور من رجل تبدو عليه بعض العلامات الظاهرية فقط للتدين.

قصر الثوب وطول اللحية أو تغطية الوجه كل هذا لا يجعل للمريض مخرجاً أو مبرراً لأحقيته في عدم تلقي مثل هذه الأسئلة. هذا فقط مثال كما أن هناك من يغضب ويشعر أن مثل هذه الأسئلة مزعجة وغير مريحة بالرغم من توضيح أنه لا استثناء في طرح مثل هذه الأسئلة وأن أي مريض يتلقى مثلها.

لم يوجد الطبيب في الحقيقة ليطلق أحكامه عليك أو يعاقبك، إنما يحاول جاهداً أن يعمل ما بوسعه كي تتحسن كل الأمور وتصبح أنت كمريض على أفضل حال ممكن بغض النظر عن تلك الإجابات التي حملها تاريخك المرضي.

كلما كنت صادقاً كانت الأمور أوضح وتسير في صالحك بلا شك، وتحول دون فشل الطبيب في خطواته نحو معرفة العلة التي أصابتك.

أكتب وأنا أتذكر كلمات أحد المرضى وهو يحاول أن يعد الطبيب بأنه لن يعيد تعاطي المواد المخدرة مرة أخرى وبأن هذه المرة الأخيرة. كان الوضع محزناً لأن المريض يعتقد بأن كل ما يريد أن يسمعه الطبيب هو هذا الوعد. وكما ذكرت بأن صلاحك من عدمه لن يؤثر في الرعاية الطبية لك، وكونك ستتوب أو تبعد نفسك عن ممارسة ما، فهذا أمر يعود إليك والمصلحة لك وحدك بعيداً عن الطبيب. لم يكن الطبيب في الحقيقة قد طلب من المريض أي وعود، إلا أنه وبدافع الطبيب الإنسان جلس أمامه وتحدث إليه مقتطعاً جزءاً من وقته وهو يحاول فقط أن يخبره ويقنعه بألا يستمر بأمر كهذا. كان حديث الطبيب أبوياً، وكان المريض شاباً. بدا وأن الطبيب متألم لحاله

وأخبره بأن أمر الوعود هو أمر لا يخصه في الحقيقة وأن حديثه ما كان إلا رغبة منه بمساعدته، وتوعيته بالسوء الذي يجر نفسه إليه ما دام في هذا الحال.

نأسف عند رؤية أمثال هؤلاء، وهذا لا يمنع أن يحدث الطبيب المريض بدافع إنساني أخوي أو أبوي، إلا أن هذا لا يعني في حين أنك ستختار التجاهل والاستمرار في ما أنت تصنع بأن هذا سيغير شيئاً عند الطبيب ما دامت عواقب الأمر تعود عليك وحدك دون أن تسبب الضرر لغيرك.

الطبيب لا يبحث عن زلاتك كي يعاقبك، ولا ينتظر أن تجيب له بأنك تمارس فعلاً ما كي يبلغ الجهات الأمنية أو غيرها عنك. الطبيب إنسان وليس آلة تتحدث إليك وتتولى الرعاية الصحية ثم تبعد عنك لتنتقل إلى مريض آخر. الطبيب إنسان يعلم أن الله كرمك وكرمه ويعلم حين يقدّم نصيحة وحديثاً بدافع رغبة الخير لك بأن هذا لا يعني بأنه يحكم عليك بالسوء. الأمر خلاف ذلك تماماً.

أتسيّر الكلب أم يسيّرك؟

دخلتُ إلى الغرفة الكبيرةِ في جناح قسم الطب النفسي، ما يقارب 25 طالبة في الغرفة ذاتها.

كانت تجلس بلباس المستشفى زهري اللون وبجانبها الطبيبة. تتحدث، تنتقل من حكاية لأخرى دون أي ترابط يُذكر، تتحدّث عن رضيعها لحظة ثم تنتقل لأدويتها وتوقفها عنها، تضحك في لحظات ثم ما تلبث أن تنتقل لشيء من الحزن لتجد الدمع في عينيها.

لأيام كانت منوّمة في هذا الجناح وكانت لا تزال كذلك إثر نوبة هوس تعرضت لها بسبب إصابتها بالاضطراب وجداني ثنائي القطب، والذي شخِّص عندها قبل سنوات حين تعرضت لنوبة هوس وقد شخّصه أحد الأطباء النفسيين.

عند سؤالها وأخذ التاريخ المرضي منها، كانت تستجيب بصورة سريعة، إلا أنها مع معظم الإجابات كانت تنتقل إلى مواضيع أخرى بشكل مفاجئ، لا تكاد تجد العلاقة بينها وما سبقها. تحدثت كيف كانت في الأيام التي تسبق دخولها للمستشفى تشعر بنشاط كبير وعدم حاجة للنوم، كان نشاطها مصحوباً بأعمال تزيين منزلية بشكل مستمر بالإضافة إلى أن حالة الهوس أدت بها إلى شراء الكثير من المستحضرات التجميلية وأمور أخرى. كانت تخبرنا كيف كانت والدتها تهددها بإحضارها للمستشفى في حال لم تكف عن ذلك. في الحقيقة هي لم تكن تملك التحكم في كل تلك التصرفات، بل كان الهوس هو الذي يتحكّم فيها. وكما يقول أحد المرضى حين وُجِّه إليه سؤال عن حالة الهوس وكيف تكون، وجّه سؤاله: هل رأيت شخصاً يقوم باصطحاب كلب له للمشي؟ فكانت الإجابة: نعم. والسؤال الثاني إن كان رأى كلباً يقوم باصطحاب صاحبه ليمشي فكانت الإجابة:

نعم، ممزوجة بضحكة. ثم أردف هكذا هي حالة الهوس، الأفكار والطاقة كثيفتان جداً لدى الإنسان المصاب حينها إلى الدرجة التي لا يستطيع في الحقيقة التحكم فيها بل على العكس من ذلك تماماً يجد نفسه متحكَّماً فيه لا متحكِّماً.

كانت تلك المريضة تذكر بأنها متميزة عن الغير ومتفردة، ولا يشابهها أحد في قدراتها، إلى الدرجة التي لقبت نفسها بأحد الألقاب التي تعطي لها شأناً كبيراً. لم تكن تمزح، أو تتصنع ذلك، كانت بالفعل تشعر بأنها، على سبيل المثال، أسطورة البلاد أو غيرها من الألقاب، بغض النظر عن منطقية ذلك وكونه واقعاً من عدمه. هكذا هي حالات الهوس وهي تصاحب معها الشعور بالعظمة.

كانت تنتقل من حكاية تشخيصها قبل سنوات إلى زوجها ثم إلى طبيبها الذي كانت ما أن تتحدث عنه حتى يجتمع الدمع في عينيها وتتغير نبرة صوتها ثم تبدأ بالدعاء عليه وهي تُرْجِع حالة الهوس التي أصيبت بها هذه المرة إليه، لأنه كان السبب في انقطاعها عن أدويتها. بلا شك نحن لا نعلم كل الحكاية مع غياب الطبيب، لهذا لا يمكننا الحكم بحقيقة ذلك من خلافه.

عندما رأيناها، رأينا ما قرأنا، وسمعنا الأطباء يخبروننا عنه عن حالات الهوس عند مرضى الاضطراب الوجداني ثنائي القطب بالرغم من أنه قد مر أيام على بدء هذه المريضة بالعلاج إلا أنها لم تتعافَ بشكل نهائي منها حتى الآن، وإلا لما كانت في التنويم حتى تلك اللحظة.

ذكرت بأنها كتبت قصيدة لأخيها وهي منومة في المستشفى خلال الأيام القليلة الفائتة، تعاتبه فيها لعدم زيارته لها في بداية أيام تنويمها، خرجت من الغرفة التي نجلس فيها وهي تخبرنا بأنها ستعود بقصيدتها كي تلقيها علينا.

عادت إلينا وبدأت بإلقاء قصيدتها، كانت تبدو حزينة وهي تسمعنا إياها، ثم ما لبثت أن غابت قليلاً لتحضر رفيقتها في الجناح كي تعرفنا إليها وملامح السعادة مرسومة على قسمات وجهها.

الاضطراب الوجداني ثنائي القطب ينتقل المصاب به من حالة اكتئاب إلى حالة طبيعية وربما حالة اكتئاب أخرى بعدها، أو حالة هوس تصيبه. يتأرجح المريض من الاكتئاب للحالة الطبيعية أو الهوس وهكذا، لا يمكننا التنبؤ عمّا سيحدث، عن أي نوبة ستحل ومتى.

حين تتأمل من أصيب بنوبة هوس، قد يبدو الأمر مختلفاً أمام عينيك مما قرأت، هي الأوصاف ذاتها التي قرأتها إلا أنها مختلفة، حين تتمثل أمامك في إنسان فإنها تلامسك لا كالكلمات التي قد يحفظها عقلك، وعلى النقيض قد يفرط بها منذ اللحظة التي تقلب فيها الورقة منتقلاً لدراسة صفحة أخرى. تتأمل تأرجح الإنسان في حالة الهوس من موضوع لآخر، من حكاية لأخرى بطريقة مربكة بعض الشيء، كيف يُصاب بحالة نشاط وقلة الحاجة للنوم، كيف يقوم بصرف جميع أمواله لشراء كل شيء أكان بحاجته أم لم يكن، دون أدنى تحكم في ذلك، كيف تظهر المرأة بطريقة قد تبدو غريبة في طوارئ المستشفيات حين تُصاب بحالة الهوس، قد تجد مساحيق التجميل تملأ وجهها وتتساءل لماذا يكون هؤلاء موجودين في مكان مكتظ بالمرضى الذين لا يكادون يطّلعون على ملامحهم في مرآة المنزل قبل القدوم، كيف تزداد ثقتهم وتخيلاتهم حتى تصل للشعور بالعظمة ويبدؤون بالتحدث على أساس التفرد والتميّز وأنهم أعلى درجة من كل من يحيطون بهم، دون أن يشعروا بأن هناك تفاصيل بُوعِد بينها وبين الواقع بصورة كبيرة، حتى غدت هناك فجوة بينهم وبينه لا يملك الهوس ملأها بما يصلح أن يقرب بينهما.

كل الأمراض ابتلاء بلا شك، وأحد أعظم الابتلاءات التي قد يواجهها الإنسان أو حتى أهل هذا الإنسان هي ابتلاء الله له بمرض يتعلق بفكره والتحكم في تصرفاته ومشاعره كأي إنسان آخر، هؤلاء الأشخاص في الحقيقة أبطال حقيقيون بما يمرون به، تجدهم يحاربون من أجل ألا يغيرهم هذا المرض أو تزورهم إحدى نوبات الاكتئاب أو الهوس. لا أحد يريد أن يفقد تلك القدرة العظيمة التي وهبها الله سبحانه وتعالى إيانا على خلق الاتزان في كل شيء أو على الأقل الكثير الكثير من أمور حياتنا، الممارسات بشتى أنواعها، الأفكار بمختلف تناقضاتها، والمشاعر بعمق معانيها. هذا الاتزان وهذه الوسطية تخلقان الواقع والإنسان الذي يدرك تماماً ما هو فيه وما هو مقدمٌ عليه.

صفعة التغيير

بإمكان نسبة ليست مرتفعة من المرضى الاستمرار في الحياة لعام واحد بعد الإصابة به، وُجد أنه أحد الأسباب الأكثر شيوعاً للموت عند الرجال والنساء من بين أنواع أمراض السرطان الأخرى.

سرطان البنكرياس، إما أن يصيب رأس البنكرياس أو جسمه أو ذيله، وفي معظم الحالات فإنه يصيب الرأس أو رقبة البنكرياس.

لم تكن تعلم عن علم الأطباء في الأيام القليلة الماضية عمّا ألمّ بها، حضرت إلى العيادة بموعد عادي ليطلب الطبيب تنويمها لمعرفة سبب تلك الآلام التي كانت تزعجها، كانت الآلام غير واضحة تماماً لا تعلم في أي الأماكن من البطن أو الظهر يصيبها الألم، كانت الشكوى مربكة لي بعض الشيء.

لم تكن تعلم وبقيت مدة تنويمها على مسكنات كي لا تشعر بالألم على الأقل. تواجد الفريق الطبي بجانب ستارة المريضة وكانوا يذكرون أن المريضة لا تعلم وعلينا أن ننتظر الابن، ومن ضمن الحديث سمعت كلمة تدل على سرطان البنكرياس، كان الأمر مفاجئاً بالنسبة إليّ. كنت حينها أقوم بسؤال هذه المريضة التي بجانبي عن تاريخها المرضي، وكانت تخبرني عن الألم غير الواضح والذي لم تستطع تحديد مكانه بالضبط ولم أشعر حينها بأهمية كبيرة للأمر. كنت أعتقد بأنه مجرد ألم عادي خصوصاً مع تعدد الأماكن التي كانت تشير إليها. كان سرطان البنكرياس يسبب لها هذا الألم منذ ما يقارب أربعة أشهر وهي تجهل أن شيئاً ما خطراً جداً، مميتاً – كأصح قول – قد ألمّ بها.

أخبرت ابنتها الفريق الطبي بأنها هي كذلك تعلم ما حل بوالدتها، تذكرت قبل حدوث هذا الموقف بدقائق وأنا أتساءل بالقرب من ابنتها ما إن كان الفريق الطبي قد أخبروهم بأي شيء، فأجابت بأن هناك مشكلة في البنكرياس وهذا كل شيء. تبين لي لاحقاً أنها تعلم ولم ترد أن تفصح بشيء من الفجيعة أمام والدتها.

بقيت لا تعلم، وتعيش على مسكنات كي يهدأ الألم قليلاً فلا تتوجّع، الألم الذي لا تعلم هي في الحقيقة سبب ملاحقته لها.

حينما سألت المريضة عن عدم قدومها للمستشفى بسبب هذا الألم مسبقاً بالرغم من استمراريته لأربعة أشهر ذكرت بأنها اعتقدت أنها تتألم لأنها تعرضت للبرد، ما أدى إلى استبعاد أن يكون المرض مميتاً، حتى في هذه الأيام وقد تم تنويمها لم تكن قد قدمت عن طريق الطوارئ بل كانت قادمة للمراجعة في موعد لا علاقة له بشكواها بل بمرض آخر تماماً. إلا أن الشكوى استرعت اهتمام الطبيب فعلم أن هناك ما يتوجب فعله، خصوصاً حين تكون شكوى كهذه من كبير في السن.

في لحظة تعتقد بأن ما حل بك مجرد آلام بسبب تغير الجو وبرودته، وفي الواقع أنت تعاني من أحد أسوأ أنواع السرطان والتي لا تحمل عادة نسبة نجاة عالية. الوقت الذي أمامك قصير جداً وأقصر مما اعتقدت، كنت تظن أن الحياة ستهبك المزيد من الوقت، هكذا نحن دائماً بالرغم من حقيقة أن الموت قد يحل في أي لحظة حاضرة، لكن شيئاً ما يعيق رؤيتنا لها في أحيان كثيرة. القليل من الوقت وتراكم الخوف والوجع وترقب مفاجآت المرض، كل هذا تدرك أنه بانتظارك أو أنك تمر به الآن. ماذا لو قرر أحدهم ألا يخبرك وبأنك من الأجدر ألا تعلم؟ أن تجهل عن قرب موتك، أن تكابد الألم دون أن تعلم ما خلف هذا الألم، وأي سوء وبشاعة يحدثان في جسدك الهزيل. لا تدري ما تتلقى في هذا المكان، ترى من ترى هنا وتعلم أن هناك من أتى ليؤدي واجباً فقط دون أدنى مشاركة لمشاعره، وهناك من يأتيك بإنسانية مفرطة يعاملك كما تستحق أن تُعامل، ثم ننتقل للأقربين أولئك الذين قرروا أنك غير مؤهل لمعرفة قرب أجلك، معرفة أنك حالة شبه ميؤوس من تقدم صاحبها للأفضل. هؤلاء سيعايشون مشاعر شتى متناقضة تعذبهم في الوقت ذاته، سيشعرون بالخوف وبالترقب، وسيصيبهم الانتظار بلعنته، ستزورهم تفاصيل الرحمة والشعور بالذنب والشعور بالتقصير، وستزورهم كل اللحظات التي لم تتفقوا فيها، تلك التي أغضبوك بها ويندمون.

الطب يعلّمكَ أن الحياة لا يمكن أن تكون مساراً وحيداً، من المستحيل أن تثبت على حكاية واحدة. الحياة ستفاجئك دائماً بما يحمله القدر. ستفاجئك في لحظة واحدة تدرك فيها أن كل شيء تغير، وأنه لا شيء من الممكن أن يعود كما كان، تفكر كيف يمتلك الحال هذه المقدرة الهائلة للتحول دون أن تبدو على ملامحه أي بوادر لذلك، كيف يمكنه أن يصفعك في لحظة، في ثانية واحدة، كنت تظن قبلها أنك بكل خير، وأن كل شيء على ما يرام. وأن هذا الذي أنت فيه لا يمكن أن يحمل البشاعة إليك.

عدم اتزان الحياة وغياب ضمان الثبات على حال واحد هو أحد أول أسس الحياة.

سيذكرونه جيّداً بلا شك

المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك أمام عينيّ طوال سنواتي في الطب. كان ذلك في سنتي الأخيرة فيه، سنتي الخامسة، وكأنما لم يكن لي أن أودع مقاعد دراسة الكلية إلا وقد مررت به.

القوة التي يملكها الطبيب مهولة ومخيفة بعض الشيء، أن يملك إنسان أن يقرّ بأن حياة أحدهم لا يمكن أن تستمر طويلاً أو أن لا شيء هناك للتدخل به ليحسّن من حالة المريض الصحية. أن لا شيء هناك يعني أنك ستضطر لانتظار موت مريضك كطبيب.

كنّا خلال إحدى الجلسات التعليمية مع أحد الأساتذة في تخصص الجراحة، قاطعنا صوت هاتفه ربما للمرة الثالثة، اعتذر وأجاب على المكالمة.

أخبر المتصل بالمكان الذي نتواجد فيه وكنا لا نزال داخل مكان العمليات، قدم بعد لحظات أحد الأطباء يعتذر ويخبر الأستاذ بأنهم بحاجة لأخذ استشارة منه بشأن حالة مريضة تحت التخدير متواجدة الآن في غرفة العمليات ويعتقد الفريق الطبي بأنه ليس هناك ما يمكنهم عمله لمساعدتها.

وقف الأستاذ واستأذن لقدومنا معه وحضورنا الحالة، تبعناهما بعد موافقة الطبيب الآخر، كنت متجهة معهم نحو غرفة العمليات لا أدري أي شيء سأراه، كيف ستكون هيئة إنسان يعتقدون من يقفون بجواره أنهم لا يملكون صنع أي شيء لإنقاذ حياته.

دخلنا الغرفة، مستلقية لم أكن أرى سوى الجزء المكشوف من جسدها، في الحقيقة لم أكن أرى سوى أحشائها، كان هناك طبيب ثالث هو من تولّى الشرح لأستاذنا، كان يريه أجزاء من أعضائها الداخلية ويخبره بأنه لم يرَ شيئاً بهذه الدرجة من السوء من أمثال هذه الحالة. كان يتحدث

بهدوء وشعرت بأن هناك صعوبة في إيجاده للكلمات، رأيت في عينيه اللتين تنتقلان من مكان إلى آخر شيئاً من الحيرة والتردد، يشعر ويكاد يبقن أنه ليس هناك ما يمكن صنعه، وفي الوقت ذاته وكأنما طلب من طبيب آخر المساعدة كي يؤيده أو ينفي كل اعتقاداته. لم يستغرق الأمر الكثير، كنا نقف ونتابع نقاش الأطباء عنها، تلك التي لم تشعر بوجودنا، مستلقية غائبة عن الوعي. كانت رائحة الغرفة نتنة وذلك لما تسبب به انقطاع الدم عن أعضاء من جسدها. حين يتلف شيء ما يمكن في أحوال استئصاله، لكن كانت أعينهم تنتقل من عضو لآخر وكل واحد يبدو معطوباً أكثر من الذي يسبقه. لا يمكن استئصال كل هذا. لا يمكن صنع أي شيء.

أخبر أستاذنا بأن على أحد أعضاء الفريق الطبي الاتصال بالأهل ليحدثهم ويخبرهم بمستجدات الأمر. وهي؟ كانت لا تزال فاقدة للوعي، مع ثلاثة أو أربعة أطباء يتحدثون بجوارها عن موتها، عن اليأس الذي توصل له جسدها، عن فقدان المقدرة لصنع ما يمكن أن ينقذها.

عدنا مرة أخرى من حيث أتينا، تحدث حينها الأستاذ بأن طبيعة عمل الطبيب قد تتطلب مثل هذه الأمور، تتطلب أموراً بالكاد ينطقها لسان الطبيب، وهو في الوقت ذاته قد يتألم ويتمنى أن الأمور كانت أفضل من هذا الموقف الذي اضطر أن يعايشه.

قال إنك مضطر أحياناً للتعرض لمثل هذه المواقف، كأن تخبر أهل مريض بأنه ليس هناك في الحقيقة ما يمكن أن يقدّم لشخص عزيز، تخبرهم بطريقة أو أخرى بأننا جميعاً سننتظر موت هذا الإنسان لأنه مع مضي وقت قصير سيتدهور حاله، ثم يرحل. ذكر أثناء حديثه بأن الله بيده كل الأعمار إلا أن هذه المريضة من المتوقع أن تبقى لـ 24 أو 48 ساعة ثم تموت إثر صدمة إنتانية septic shock.

لن يطول الأمر كثيراً في الغالب.

نُصاب أحياناً بالحيرة، بعدم المقدرة على اتخاذ القرار في شؤون حياتنا اليومية، أحياناً تكون هذه الأمور بسيطة جداً وقد لا تملك قيمة كبيرة، إلا أننا نرى أن لها أثراً تتركه في أيامنا، لهذا قد نبقى طويلاً محاولين أن نفكر بصورة شمولية قدر الإمكان كي نتخذ أصوب القرارات. هذا فيما يخصنا نحن، وفي الكثير من الأحيان هي أمور حياتية يومية ليس من الضروري أن تكون متعلقة بحياة أو موت أو حدوث أمر سيئ جداً.

اتخاذ القرارات يتطلب حكمة، وتفكيراً عميقاً شمولياً لا يغفل عن الأمور التي قد تكون مختبئة ومؤثرة في اختيار القرار. كيف إذا كان هذا القرار متعلقاً في حياة إنسان؟ في مساعدته للبقاء على قيد هذه الحياة، أو على تركه وانتظار أن تفارق روحه جسده.

قد يواجه الطبيب أمثلة كثيرة في حياته المهنية، أحداثاً يجد فيها نفسه مضطراً لاتخاذ مثل هذه القرارات المصيرية، وعلى أساس هذا القرار سيتبدل الكثير، وتتغير حياة أناس قد لا يعلم تفاصيلهم لكنهم سيذكرونه جيداً بلا شك.

أمنية القفز في حوض الاستحمام

كنت أستمع إليه وهو يصف الحالة لي ولأحد الزملاء.

كانت المرة الأولى التي تمر بي معلومات كهذه، لم أكن أعلم بوجود حالة تتمثّل بكل هذا.

تساءلت وهو يتحدث ما إن كان الطبيب المقيم أمامي يشرح لنا حالة مرضية قرأها مرات عديدة في أحد الكتب.

ألقيت بنظراتي إليه وأنا أسأله إن كان رأى أحد المرضى الذين يعانون من هذه المتلازمة.

بدا لي حينها وكأن قسماته تبدّلت بعض الشيء ما إن وصل سؤالي إلى مسمعه. أخفض نظراته ثم عاود رفعها وهو يذكر لي عن مريض أشرف على حالته من قبل.

Locked in syndrome متلازمة المنحبس ينتج عنها عدم مقدرة المريض على تحريك أي شيء في جسده سوى شيء واحد: عيناه.

بإمكانه غلق عينيه وفتحهما، كما أن قدراته العقلية تبقى غير متأثرة لحسن الحظ، سليمة تماماً كأي إنسان آخر.

يكون كل شيء محبوساً، مقيداً لا يجد السبيل إلى الخروج سوى من باب واحد.

باب أو نافذتان إن صح التعبير، نافذتاه إلى العالم: عيناه.

يصمت الصوت وتسكن حركات الجسد مهما كانت المشاعر التي يشعر بها المريض، بغض النظر عما يريد أن يصرخ به لما حوله، بغض النظر عن مقدار الوجع الذي يشعر به لعدم

مقدرته على ممارسة أي حركة مهما صغرت.

قد يشعر برغبة بحك أنفه أو إحدى أذنيه فلا يستطيع. كم من المرات نؤدي تصرفاً كهذا بوعي وتقدير لما يمكّننا جسدنا من فعله وإن ظهر بمظهر البساطة والتفاهة. نفعل فقط لأننا نريد ذلك أو نشعر برغبة تدفعنا لتصرف كهذا، ولا شيء يحجزنا عن التحكم وإطلاق العنان لتحركات جسد.

قد تخون النافذتان كثيراً حين لا تعتاد أن تكون عيناك فقط هما حديثك وصراخك وتحركاتك كلها وحزنك وفرحك وخطواتك التي لا تملك أن تصنعها قدماك.

قد نشعر بالضيق حين نجبر على الصمت فنعوض ذلك بأي حركة أو حركات جسدية متعددة. وفي الجهة الأخرى قد نجد أنفسنا في أحوال أخرى مجبرين على ملازمة أماكننا والحد من الحركة لظرف معين أو حدث، فنجد أننا قد نعوض ذلك بالحديث والثرثرة التي قد لا تعني أي شيء. وقد لا يدفعنا إليها أي هدف ملموس الأثر، لا شيء سوى سد فراغات سكون الحركات.

كان الطبيب المقيم يتحدث ويخبرنا عن مريضه، كيف كان يتواصل معه ويستقبل إجاباته رغم كل الصمت وعجز الحديث. كان المريض يجيب بنعم وهو يغلق عينيه لمرة واحدة أما لا فهي غلقهما لمرتين متتاليتين.

في بعض الأحوال قد لا تكون حركة العينين حاضرة هي الأخرى.

لا يمكن أن يُتصوَّر شعور كهذا لغير من عايش ظروف المرض، لكن الإنسان القادر على فعل كل ما يُمحى في متلازمة المنحبس قد يدرك على أقل تقدير أن الخسارة حين الإصابة عظيمة بل فادحة مفجعة يصعب جداً تقبلها وقد يكون ذلك في بادئ الأمر أو في الأمر كله.

غير أن المريض يبتدئ مشواره بكونه معتمداً على الآخر في كل شيء. فقد حديثه وحركات جسده المعتادة، تلك التي يمارسها بنفسه، فقد خطواته إلى سريره عند حلول ليل، فقد قدرته على السؤال عن غداء اليوم بعد يوم عمل شاق، فقد الحديث عن إنهاكه، عن فرحه وحزنه، فقد الحديث بمشاعر تخالط صوته ولطالما فعلت.

برغم كل الفقد إلا أن القدرات العقلية كما ذكرت تبقى محفوظة، يبقى هذا العقل على أتم الاستعداد للمواصلة، للاستمرار لحكمة ما بلا شك.

قد تتعدد الأسباب المؤدية إلى هذه الحالة، من الممكن أن يعاني الإنسان من سكتة في أحد أجزاء ساق المخ وهو القنطرة أو الجسر، أو من إصابة أو ورم في الدماغ فيحيل الإنسان إلى هذا الحال.

دفعني الفضول للبحث أكثر وحينها وجدت طرقاً فعالة تستخدم لإبقاء عملية التواصل بين المريض والعالم دون الاكتفاء بالحزن أو تجاهل المرض والاستسلام للحالة بكل سلبية.

قد يستخدم البعض مع المرضى لوحة تحوي الأحرف الهجائية فيشير بإصبعه على كل حرف، يمر بكل الأحرف وما أن يصل إلى الحرف الذي ينوي المريض النطق به فإن المريض يحرك عينيه. هناك أجهزة أيضاً من شأنها أن تعزز عملية التواصل وتساعد المريض على التعبير أكثر. تساعده في التواصل في هذا العالم الذي يستند بصورة كبيرة على تواصل الإنسان مع أخيه الإنسان.

شاهدت حكاية إحدى المصابات والتي بقيت لثمانية أعوام دون أن يتحسن حالها إلا أنها كانت مصرة على العيش والتعايش مع هذه الحالة بأكبر قدر من الإيجابية. كانت في الحقيقة مصرة على أنها ستتحسن مع مرور الوقت حتى تصل إلى اليوم الذي تعود إلى ممارساتها بشكل طبيعي قبل إصابتها بالسكتة الدماغية.

بعد ثمانية أعوام من استمرار حالتها على الوضع نفسه بدأت الأمور بالتغير، أصبح بمقدورها تحريك رأسها وأصابع قدميها. كانت تشعر بأن هناك مغزى من وجودها. استطاعت بقوة كبيرة ومقدار تماسك عظيم أن تستمر إلى هذا الحد وبهذه الصورة.

يختلف المرضى وتختلف أحوالها وحالاتهم المرضية بلا شك، ما يهم ألا يظلم هؤلاء وأن يعاملوا كبشر فهم يسمعون ويعون، وما زالت عقولهم تفقه وتدرك تماماً كالإنسان السليم.

حينما سُئلت تلك المريضة عن أمنيتها وما تود فعله بعد أن تعود وتتحسن بكامل صحتها، ذكرت بأنها تتمنى أن تقفز إلى حوض الاستحمام، بأن تقوم بتسريح شعرها كما تريد ووضع

مساحيق التجميل كما تريد هي ولا أحد غيرها.

كم من المرات تحدث مثل هذه الممارسات لدينا؟ هل قمنا بها بتثاقل وانعدام رغبة؟ هل علمنا أن هناك من أمضى ثماني سنوات وأكثر وهو يحمل أمنية القفز في حوض الاستحمام وتسريح شعره بكل بساطة؟

إلى أبشع منحدر

من أعلى قمة إلى أبشع منحدر.

من انتصارات الشهرة إلى وحل المرض والخوف والعزلة ثم الموت وتخليد ذكرى جائرة.

بعض الحكايات تدفعنا للتساؤل والحيرة، تدفعنا لخلق الأسئلة التي لا نرغب في الحقيقة بمواجهتها.

كم من الأمور التي يبدو ظاهرها جيداً ومقبولاً هي في الحقيقة عسل قد دُسّ السم فيه؟ كم من الحكايات تُخبّأ حقائقها ويظهر لنا منها ما يُراد منّا أن نراه فقط وإن خالف كل الحقيقة؟

يبدو العالم مخيفاً حين تضعنا الأيام أمام وقائع وممارسات تكشف أوراقها بكل وضوح، ويزيدك يقيناً بصحة ما فيها مقدار الحرب تجاهها من قبل أولئك الذين حاولوا طويلاً إخفاء كل الحقائق.

كأنه لم يكن يملك ملايين الدولارات، مشرّد في الشوارع تفزعك هيئته.

ينسى، تخونه الذاكرة. يعاني كثيراً من أجلها، يحاول أو لا يحاول فلا جدوى.

حزن وتيه، غارق في الاكتئاب يتفاقم حاله كأنما أُبدِل بإنسان غيره، يكاد من حوله لا يعرفونه، مضطرب إلى أبعد الحدود الممكنة.

في عقده الخامس، الوقت مبكر على النسيان، على عطب الذاكرة، مبكر على هذا التيه وتحول العقل بهذه الصورة.

يموت.

يقف الطبيب الشرعي بينيت أومالو بجانب جسده الذي كأنما عاش أكثر بكثير من سنوات عمره. أسنانه التي تساقطت قد حاول إعادتها باستخدام الصمغ، قدماه تحوي على شقوق مؤلمة كان يقوم باستخدام الشريط اللاصق لتضييقها كي يخفف الألم عن نفسه. وجبينه، جبينه الذي لطالما أقدم على توجيه الضربات به وتلقى الصدمات بصورة متكررة خلال 14 عاماً من ممارسة كرة القدم الأمريكية. وُجِد أن الجلد الذي يغطّي جبينه ثابت بجمجمته بعد أن كوّنت الصدمات المتكررة الكثيرة جداً نسيجاً ندبيّاً.

يقف د. أومالو حائراً بعد أن علم عن الأحداث والسنوات الأخيرة من حياة هذا الإنسان، اللاعب السابق في أحد فرق كرة القدم الأمريكية: مايك ويبستر.

يقرر بعدها د. أومالو عمل تشريح كامل لجثة هذا المستلقي بالقرب منه.

مع كل ما كان يعاني منه من اضطرابات المزاج وضعف في القدرات الإدراكية كضعف الذاكرة خلال السنوات الأخيرة، كان يتوقع د. أومالو أن ينظر إلى دماغ إنسان مصاب بألزهايمر بحجم أصغر من الطبيعي، إلا أن المفاجأة كانت أن الدماغ بدا طبيعياً!

دون تغير في الحجم، دون أي شيء قد يدل على إصابة هذا الإنسان بحالة مرضية عقلية تصاحبها الأعراض التي تعرف إليها والتي استمرت مع اللاعب لسنوات متعددة.

المفاجأة دفعته للفضول، للرغبة بمعرفة المزيد. كيف يكون دماغ إنسان كهذا بهذه الصورة الطبيعية ولماذا عانى ما عانى خلال سنوات عدة قبل موته.

ما زال هناك المزيد يمكن فعله، لهذا انتقل إلى فكرة أن يجري المزيد.

أن يضع الشرائح المجهرية التي تحوي أجزاء من دماغ مايك ويبستر في رحلة الفضول هذه، ليتعرف أكثر، لعله يجد شيئاً ما أو لا يجد.

أصابه الذهول بعدها، تأكد مرات عدة ما إن كانت الشرائح التي تطل عليه من تحت المجهر للاعب ذاته. وكانت كذلك.

رأى في الشرائح المجهرية بروتينات غير طبيعية وأماكن وجودها تختلف عما يُرى لدى مرضى ألزهايمر، كان هناك تغييرات لا يُفترض أن تُرى في دماغ شخص في الخمسينات من عمره، تغييرات لا يفترض أيضاً أن تُرى في دماغ بدا الشكل الخارجي له طبيعياً تماماً.

الاتحاد الوطني لكرة القدم الأمريكية كان ينفي مسبقاً أن ممارسة كرة القدم الأمريكية بما تتضمّنه من إصابات متكررة للرأس من الممكن أن تحمل عواقب وتتسبب في أمراض عقلية للإنسان على المدى البعيد.

كان الأمر مخالفاً لذلك تماماً، فبعد ما رآه د. أومالو تولد لديه يقين أن تكرار الصدمات على الرأس، وإن لم يتسبب بضرر ظاهري حين تلقي الصدمة، له أثر على المدى البعيد كما حدث مع هذا اللاعب.

كان د. أومالو أول من اكتشف المرض التنكسي المزمن الذي يصاحب اللاعبين الذين يتعرضون لضربات رأس متكررة وإن لم تكن شديدة، وقام بتسمية المرض (Chronic Traumatic Encephalopathy (CTE ويعني الاعتلال الدماغي الرضحي المزمن، وهذا المرض هو ما كان يعاني منه هذا اللاعب.

هنا تتغير النظرة تماماً تجاه ممارسة هذه اللعبة. هل يستحق أن يضحي المرء ويعرض نفسه للإصابة على المدى البعيد بمرض كهذا من أجل ممارسة لعبة أو رياضة عنيفة كهذه؟ يصاحبه الاكتئاب، اضطراب الذاكرة، الهلوسة ونقص الذكاء واضطرابات في الشخصية.

لحق هذا اللاعب لاعبون آخرون وبلا شك فقد سبقه أناس كذلك لهذا المرض قبل أن يُكتشف.

الحالة الواحدة تبعها حالات أخرى تؤكد صحة هذا المرض وصحة خطر ممارسة لعبة كرة القدم الأمريكية، ولم يعد بالإمكان تجاهل هذا المرض بالرغم من محاولات محبي هذه اللعبة ومن يمثلون الاتحاد الوطني لكرة القدم الأمريكية لمحاربة هذه المعلومات وتكذيبها كي يتجنبوا الضرر الذي سيعود لهم من جراء انتشار معلومات كهذه.

اعتقد د. أومالو أن الاتحاد الوطني لكرة القدم الأمريكية يرغب بصدق بسماع الحقيقة إلا أن الواقع كان خلاف ذلك تماماً.

في أحوال تؤمن أنك تمارس ما يمكنه أن يعود للبشرية بالنفع، تؤمن وتسخّر لذلك الكثير من وقتك وجهدك ومالك فقط من أجل هذا الذي تؤمن به، وبالمقابل فإنه ليس بالضرورة أن تقابَل في كل الأحوال بالتقدير لما تصنع. على خلاف ذلك فإن البعض حين تمسّ الحقائق مصالحه المستمرة لزمن طويل، لجهل من حوله، فإنه سيقدِم على أي شيء من شأنه أن يوقفك، أن يجعلك تتساءل بريبة ما إن كنت على صواب وقد كنت لا تشك في ذلك يوماً.

الطبيب المعلّم

مكارم الأخلاق

المعلّم الحقيقي هو من يعلمك الكثير من الأمور النبيلة دون أن يحدّثك عنها، بكلّ لطف يرشدك إلى خلق رفيع، تشعر في قرارة نفسك وكأنما حسن عمله يأمرك بأن تكون روحك أسمى فتلبّي راغباً بهذا وأكثر.

المعلّمون الحقيقيون بإمكانهم بالفعل أن يغيروا من مجرى حياتك كلّها، هذه ليست مجرد كلمات. وهذا ما حدث حين كنت أدرس في المرحلة المتوسطة، إلا أني في هذا الكتاب أذكر أحداثاً وقعت خلال دراستي في الطب فقط، ويتعذر أن أتطرق لحكايتي مع تلك المعلمة التي سأبقى أحمل لها امتناناً عظيماً حتى يشاء الله، ولولا أن سخرها الله لأن تكون في طريقي لما كنت لأكتب هنا، أو لأنشر هذا الكتاب.

قد تبقى سنوات مع أناس لا يضيفون لك أيّ شيء وقد تمر مع آخرين لأشهر أو حتى شهر واحد ليتركوا فيك كل الأثر الطيّب الذي من الممكن أن يخلّفه إنسان فيك.

لا عجب أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، ولا عجب أن خلق الإنسان طريقه للجنة. لا يمكن ألا يستوقفك صاحب أمانة وخلق عظيم في عمله، أي في كل يوم ما لا يقل عن ثماني ساعات في خمسة أيام من كل أسبوع. هذا أمر عظيم بلا شك، أن تتحكّم بتقلبات مزاجك وعواطفك وحتى رغباتك من أجل الإنسان الذي أمامك، من أجل الإنسان الذي أقسمت وأنت تحمل يوماً فرحة التخرج في قلبك وثقل الأمانة على كتفيك بأن تصون حياته.

من الجيّد جداً أن تمر بمعلم واحد حقيقي، لكن أن تمر خلال شهر باثنين فهذا حظ كبير وفرصة عظيمة وإشارة من القدر بأن تنهض، تتحرك، تفكّر في كيف لك أن تكون أفضل كي لا

تخيّب ظن المرضى الذين ستجد نفسك كطالب أمامهم قريباً بعد تخرّجك.

الطبيب المتفرّد الذي لن تنساه، هو الإنسان الذي تَتَتَبّعه عيناك عند مريض له، ويبهرك في كلّ مرة، يحدثهم ويستمع كثيراً سواءً كانت تعني له الكلمات شيئاً أم لم تعنِ، يقاطعهم بلطف، يخبرهم دون أن يحدّث بذلك بأنه هنا فقط ليخدم حضورهم الذي يبغضونه ولا يفضلونه، حضورهم الذي لم يتمنّوه أبداً، ويساعدهم على تخطّي هذا الشعور. يدرك أن المرض حاجة الإنسان البشعة لغيره، فيترفع عن تقوية شعور الحاجة هذا فيهم كي يخفف عناء وجودهم.

أسمع أحياناً عن معاملة كل مريض كإنسان مختلف مستقل لا يشبه غيره، معاملته على أساس من يكون هو دون الصورة النمطية التي قد يضعها البعض ويظلم بها أي مريض يمر بعيادته. باختصار معاملة أي إنسان لإنسان آخر مع احترام اختلافه وخلفيته.

كان الطبيب الوحيد خلال سنوات الطب القصيرة الذي رأيته يفعل هذا، يعامل كل مريض استناداً إلى معرفته به في مواعيد ومقابلات سابقة. حتى حلّ موعد أحد المرضى الذي جعلني أتفاجأ في الحقيقة، كنت أرى فيه الطبيب الإنسان قبل هذا الموعد إلا أن احترامي له وتقديري لما يصنع في كل يوم ازداد كثيراً بعده.

خرج من العيادة ليستقبل المريض في الممر ويصافحه ويسأل عن أحواله حتى أدخله العيادة لعلمه بأن هذا المريض ينفعل بسرعة ويفقد أعصابه، المريض الذي هذا حاله بلا شك لن يستطيع أن يفقد أعصابه أمام طبيب قدّم له هذا الاهتمام حتى قبل دخوله للعيادة، سيشعر بالاهتمام والتقدير وهذا ما يريده أي إنسان بلا شك مهما اعتقدنا أن فعلاً كهذا لن يغيّر شيئاً. على خلاف ذلك أنا متأكدة بأن شيئاً كهذا من المحال ألا يغيّر الكثير.

كنت سعيدة جداً في تلك اللحظات، سمعت ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا، سمعت وتعلّمت أن من المفترض أن يصافَح المريض، أن يرحَّب به بشكل لائق ولكن المعتاد كان خلاف ذلك. كانت الصورة عن الأطباء في أذهان الكثيرين هي طبيب يجلس على مكتبه ينظر إلى شاشة الجهاز أو إلى الأوراق أمامه وهو يعقد حاجبيه، يسأل من دخل للتو: كيف حالك؟ دون أن ينظر إليه، دون أن يعلم حتى ما إن كان الداخل ممرضاً أم مريضه المنتظر أو مريضاً آخر أخطأ الطريق إلى عيادته، وهذا يعني في الحقيقة أنه غير مهتم للإجابة وبالتالي لن يعني سؤاله أي

شيء. ماذا سيكلّف انتقال نظرك للحظات للنظر تجاه من تسأله عن حال له وقد أتى لتقضي له حاجة؟

هذا الطبيب الإنسان كان معلّماً حقيقياً، تشعر بشغفه ليهبك شيئاً من العلم وأنت برفقته، منحني الفرصة الأولى التي لم يسبق لأحد أن وهبني إياها بعد أن سألني في أحد الأيام ما إن كنت أرغب في أن أستقبل مريضاً لوحدي في عيادة مستقلة خلال الوقت الذي سيقضيه مع مريض آخر. كان من المفترض أن أسأل عن تاريخ المريض المرضي وأقوم بالفحص اللازم ليأتي الطبيب مرة أخرى ويفعل الشيء ذاته. لم يكن وجودي ليغير شيئاً بالنسبة إليه كوني كنت طالبة بتجربة إكلينيكية ضئيلة جداً مقارنة بما يملك، لكنه كان يدرك بأن ما يفعله سيغيّر أشياء كثيرة بالنسبة إليّ. كنت أدرك أن تعاملي مع هذا المريض وأسئلتي له وحتى فحصي له لن يكون المصدر المعتمد لكني شعرت وللمرة الأولى بارتباك عظيم وأنا أجلس وحدي في العيادة أمسك بدفتري وأسأل نفسي عشرات الأسئلة دفعة واحدة. ماذا سأسأل المريض؟ كيف سأعامله كما ينبغي؟ كيف سأتذكر كل الأشياء التي من المفترض أن أسأله إياها؟ أي مريض سيدخل للعيادة بعد ثوانٍ قليلة؟ كنت أرغب بشدة أن أصنع ما يصنع، أن أكون عند حسن الظن بي، وأن أدرّب نفسي كي أكون أفضل. ربما لم أبلِ بلاءً حسناً، لكنّها كانت الفرصة الأولى وأنا ما زلت أمارس دراسة الطب، التجربة الأولى التي منحني إياها طبيب إنسان ومعلّم حقيقي، أسعى لأن أقتبس الكثير من خلقه وتعامله مع مرضاه.

وحينما كتبت في البداية بأنك ذو حظ كبير وصاحب فرصة عظيمة عندما تلتقي بمعلمين حقيقيين في الوقت ذاته وطبيبين كان لهما من الإنسانية وافر النصيب فإني أعلم يقيناً بأني لم أخطئ.

المعلّم الآخر كان مبهراً بالنسبة إليّ، علماً وخلقاً. كنت أراه – وما زلت – موسوعة في مجال تخصصه، أغبطه للعلم الذي يحمله. كان من الأشخاص الذين تظن بأن لديهم إجابة لكل سؤال يتعلق بما يعمل به. كانت إجاباته حاضرة دائماً! أيّ شيء أبهى من أن يجمع الإنسان بين علم وعمل وخُلُق. أعتقد بأن لا شيء يضاهي ذلك.

العلم وحده رفعة، فإن صاحبه عمل وتحلى بما هو محمود من خلق سيكون صاحب هذه الثلاثة متفرّد بلا شك.

كنت أشعر بأن التعليم لديه هو أسهل مهمّة وهو يشرح لي على الشاشة أمامي مسار الشرايين التي تغذي الرأس أو مكان جلطة ما أصابت أحد المرضى، كان كأنما يتحدث عن شيء حدث معه بالأمس. فقط عندما يتحدث الإنسان بهذه السهولة، تدرك عظم العلم الذي يحمله والفهم الذي ألهمه الله.

كثيراً ما نرى الأطباء يتحدثون عن تخصصاتهم بوصف سيئ، ولا يرغّبونك فيها ويشعرونك بأنهم أتعس مخلوقات الأرض لاختيارهم لها، وحقيقة لطالما آمنت بأنهم كاذبون. لا أؤمن أن من يرى هذا في تخصصه سيبقى يمارس عمله فيه طوال سنواته حتى يقرر التوقف والركون لحياة أشد راحة ورتابة.

أنا لا أصدقهم دائماً. حينما سألني هذا الطبيب عما كنت أرغب في الخوض في هذا التخصص الذي أتدرب فيه بعد تخرجي، فأخبرته بأني كذلك. كانت إجابته مختلفة عن كل الذين مروا بي، أخبرني بكل بساطة It’s a good specialty أي "هذا تخصص جيّد" وبدأ بالحديث لي أكثر عن التخصص، من الجلي بالنسبة إليّ أنه كان يتحدث بشغف وعن تجربة، أحببت هذا الصدق وهذا الوضوح لأني لا أرى في الحقيقة أي هدف من تنفير غيرك من التخصص الذي تعمل فيه، لماذا تعمل فيه إن كان منفراً إلى هذا الحد؟

في العيادة مع المرضى كانت حكاياته مختلفة جداً، كنت أتعلم شيئاً من علم هذا التخصص العظيم وفي الوقت ذاته كنت أنهل كثيراً من حكايات تعامله مع مرضاه. مرة أخرى هو يبدي لك بأن الأمر غاية بالسهولة وبأنه لا يبذل جهداً كبير لذلك. أعتقد أن الإنسان يحتاج للكثير من التجارب وقضاء زمن طويل مع المرضى ليمتلك مهارة كهذه بالإضافة إلى حاجتك كإنسان للكثير من الصبر لذلك.

في الحقيقة كان استماعه للمرضى وحرصه على ألا يخرج المريض قبل أن يعلم ويدرك جيّداً ما خطبه أمر متفرّد، كان استماعه حقيقياً مرضياً، وتعلم ذلك وأنت ترى المرضى وهم يغادرون العيادة كل مرة.

أذكر إحدى المرات التي كان أحد المرضى فيها يعاني من حالة لسنوات، لم يفترض هذا الطبيب بأن المريض يفهم ما يجري داخل جسده شديد التعقيد بالرغم من أنه من السهل جداً

افتراض ذلك عند مرور سنوات على حالة تلازم الإنسان. بإمكانك أن تحدثه باقتضاب وترى كيف هي أحواله مع هذه الحالة وتودعه لتستقبل مريضاً آخر، قام بالشرح له بكل تفصيل يحتاجه المريض كي يفهم. بعد انتهائه دعا المريض له وذكر بأنها المرة الأولى التي يعلم في الحقيقة ما يجري له، هو لسنوات يمر بأطباء لكنه لا يعلم ما يصنعون ولِمَ يصنعون ما يصنعون، لم يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق ربما، لكن أي أثر تركت هذه الدقائق الخمس يا تُرى؟

أخبرني أحد الأطباء المقيمين بأن أحد أكبر الأسباب التي جعلته يعمل في هذا المستشفى هو وجود هذا الطبيب. ولا أستغرب ذلك، فوجود طبيب شغوف بتعليمك يُبهر، وأنت ترى كيف يتعامل، كيف يفحص، وكيف يقدّر المرضى ويتفهم احتياجاتهم. إنه أمر لا يمكن أن يفوّت بسهولة، وهو محفز كبير جداً لأن تسعى للعمل في بيئة يوجد فيها أناس كهذا الطبيب.

ترى الإخلاص في روح الطبيب وشدة التفاني الذي يقدمه تجاه عمله بكل حب حينما يذكر وهو يمضي جولته الصباحية على المرضى بأنه ليلة البارحة اطلع على أشعة المريض الفلاني والتي لم يتسنَّ حتى للطبيب المسؤول عنها أن يراها بعد. ترى الإخلاص وأنت ترى أن خدمة الإنسان لديه لم تكن مقتصرة على ساعات عمل فقط، ينتظر وهو يشير بملل متى تنتهي لينسى بعدها كل شيء.

أنا ممتنّة جداً لله أن جعلني أتعرّف إلى معلمين حقيقيين، طبيبين يمثلان الطبيب الإنسان بأسمى صُوَرِه.

الطبيب الإنسان 1

"وكان صلى الله عليه وسلم يقسّم بشره وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرقوا عنه، وكل يظن أنه أكثرهم حظوة عنده".

هكذا أذكره، هذه العبارة أذكرها جيّداً من كتاب السيرة النبوية لمحمد الصويان.

هكذا أعرف وأذكر هذا الطبيب، وهذا ما يمر في عقلي في اللحظة التي يجلب فيها الحديث اسمه. تمرّ هذه العبارة بكلماتها القليلة وأنا أدرك أنه من الصعب جداً أن يذكرك أحدهم بوصف كهذا.

ليس من السهل أن تعطي كل من يتقدّم إليك لمشورة أو طلب أو حديث سواءً كان مطوّلاً أو مقتضباً ارتياح القسمات وترحيب النفس والتفاعل المطلوب. أن تهب الحق نفسه لكل شخص يأتي إليك بالرغم من ازدحام مهامك، تلك التي تتوالى عليك بشكل مستمر كطبيب وكإداري وأب وزوج وابن. هناك بالتأكيد أدوار أخرى لا نعلمها نحن.

أتساءل دائماً كيف للإنسان أن يحمل كل هذا الإخلاص وأعظم الاستعداد للعمل أكثر وأكثر؟ كيف يقتطع الجزء الأكبر من أيامه ليعطي نفسه مساحة أوسع من العطاء؟ أتساءل وأُصاب بالحيرة في كل مرة أصل فيها لكيف؟

لا أعلم في الحقيقة ما إن كان يدرك كم من الأثر يترك أمثاله في حياة من يمرّون به، كم من الدروس يعلّم وهو فقط يعمل ويمارس واجبه.

ممارسة الواجب قد تتخذ صوراً عديدة، قد يمنّ أحدهم، وقد يتواضع آخر وهو يصنع واجبه وأكثر، وهناك من سيؤديه بسوء خلق ينفّرك من حسن ما يصنع، فالناس مختلفون كثيراً في هذا. كان هو أحد الذين يجعلونك تصمت طويلاً وتتأمل نفسك، تسألها ما إن كانت ستحتمل أن تحمل كل هذا الإحسان في آن واحد ذات يوم. تتوق نفسك لأن تحمل انغماسه في العمل حتى يتم في الوقت الذي يجعلك فيه تشعر بأن التوازن لم يختل، وأن كل الأشياء تسير كما ينبغي.

كنت أشعر بأنه قريب دائماً من الطالب وحكايته، يحاول دائماً أن يكون معه إلا في صنيع خاطئ، تستطيع أن تستأذنه وتطلب مشورته في الوقت الذي تثق أنت أنه لن يبدي شيئاً من رفض إلا لعلة يدركها جيّداً، لا لأنه يشعر برغبة في الرفض دون سبب. كان يحترم الطالب ويرى أن له صوتاً لا ينبغي أن يهمّش، بخلاف من لا يقيم أي وزن لوجود الطالب، ولتفاصيل حكايته في أروقة الطب.

في المرات الثريّة التي أقابله فيها، أكون سعيدة متأهبة لأن أتعلم شيئاً جديداً، حكمة تضاف لما أحاول دائماً أن أستخلصه مما صنع. كوني مسؤولة عن نادي أنشطة الكلية للطالبات كان الأمر يحتاج أن أستأذنه في أحوال، أن أطلب رأيه، أن أعرض عليه ما تم وما يحدث وما سيكون بحول الله. كنت أحرص دائماً أن أبقيه على علم بكل المستجدات، كنت أرغب في كل مرة أن يرى بأن الذي يضع فيهم الأمل ويقف بجانبهم دائماً يستحقون ذلك، بأن لدينا كطالبات وطلاب ما نقدّمه، لدينا دائماً فرصة لأن نكون أفضل، بأننا بكل بساطة نقدر كل ما يُصنع من أجلنا لتيسير كل الأمور التي نواجهها. من النادر باعتقادي أن تجد من يرغب حقيقة بتيسير الأمور التي تخص مجموعة من الناس بهذه الطريقة كأنما هي أمور تخصه هو وحده.

"أن أخدم كل من يحتاج خدمتي في أيّ وقت وأي مكان".

كثيراً ما نرى الشعارات التي يتغنى بها الناس دون أن يكون لها أدنى أثر حقيقي ملموس في حياتهم. هذه العبارة كانت مختلفة، كتبها هذا الطبيب حينما طلبنا منه أن يكتب عبارة يجيب فيها عن "كيف يخدم وطنه" وذلك في احتفالية أقمناها لليوم الوطني.

كانت تصفه بصورة قد لا أحمل شيئاً من المبالغة إذا ما كتبت بأنها مطابقة لحاله الذي كنا نراه فيه، كان حقيقة يخدم كل من يحتاج خدمته في أي وقت وأي مكان.

ندرك كطلبة مدى ازدحام جدوله وكثرة مهامه ورغم ذلك لا تجد صعوبة في مقابلته واقتطاع شيء من الوقت لتنهي مهامك معه، ندرك ازدحام مهامه وكثرتها لهذا كنت كثيراً ما أشعر بالحرج حينما أقابله وأرى بأن فلاناً يتحدث إليه وآخر يتصل به وثالث يدخل ليحدثه في أمر مختلف تماماً. كنت أدرك حينها شيئاً من الأدوار التي اختار هذا الطبيب أن يتولاها، وعظم الأمانة التي يحملها، وفي الوقت ذاته كنت دائماً ما أحاول أن أختصر كل شيء وأنا أتحدث بسرعة، أحاول أن أنهي كل شيء سريعاً بالرغم من أني لا أذكر مرة واحدة حاول فيها أن ينهي هو بنفسه اجتماعاً أو يبدي انزعاجه لانشغاله. لكن أن تدرك حقيقة انشغاله وإن لم تدرك مدى انشغاله أمر كافٍ لأن يجعلك تخجل من أن تستغرق الكثير من الوقت في الحديث إليه عن العمل الموكل إليك.

قبل أن يكتب عبارته قال مجيباً عن السؤال بأنه قام بعملية جراحية لمريض في اليوم الوطني. أي خدمة توازي هذه؟ كان صادقاً محقاً.

لا أدري ما إن كان يدرك أي أثر تركه فيّ تعاملي معه من أجل نادي الكلية للطالبات وغيره، كانت دروسه عظيمة أثيرة ولا أشعر بأني اكتفيت منها، لأني متيقنة أن إنساناً يحمل كل هذا التفاني لا بد وأن يحمل الكثير من الحكمة التي ستشعر بها دائماً وأنت تتعامل معه لكن بالتأكيد لن تملك نفسك أن تمسك بكل شيء منها.

هذا الطبيب قال لي دون أن يحدثني، بأن العمل بصدق وصمت لا بد أن يثمر بصورة عظيمة، قد لا نتصوّرها في خضم العمل. أخبرني أن الإنسان من الممكن أن يمثّل أدواراً عديدة بإتقان الإنسان وبأمانة تُؤدّى على أكمل وجه. هذا المعلم يحمل من الخلق ما يجعلك تفخر بأنك مررت به وبأنه ترك بك من الأثر ما ستحاول أن تتمسّك به على الدوام.

كان معلّماً وطبيباً وإدارياً يحمل الكثير من الصفات التي تغبطه لامتلاكها وتتوق لأن تشابهه في كثير من صنيعه في عمله.

إحسانه العظيم، حكاية أنا متأكدة بأن الكلمات هنا لا تؤدي من حقها شيئاً.

حتى أصغر التفاصيل

كنت أدخل العيادة على مضض بعد أن علمت من يكون الطبيب المسؤول عنها، تم توزيعنا عشوائياً على عيادات الأطباء في هذا التخصص.

الحضور إجباري. اعتقدت أن العيادة ستكون مملة جداً وبطيئة نظراً لما حدث قبل يوم العيادة بأيام حين كان الطبيب ذاته يشرح لنا في إحدى المحاضرات بنبرة صوت واحدة قسّمت الملل بيننا وألقت النوم في أعيننا.

كان ينتقل من غرفة إلى أخرى، من مريض إلى آخر، وأنا أقرأ كل الرضى الذي من الممكن أن يحمله مريض لطبيبه في قسمات مرضاه.

تساءلت، أي شيء يطلبه طبيب أكثر من هذا؟ أن يُرضي المريض الذي جعل الله بين يديه سبب شفاء له، وفي الوقت ذاته يرضي ضميره ويرضي الله بأداء أمانة، الله وحده يعلم كيف يجعلنا قادرين على تحمّلها.

كان اهتمامه بالتفاصيل مبهراً، مبهجاً. مرّ زمن العيادة بمتعة غير متوقعة، وأنا أتأمل صنيع طبيب إنسان أمام عينيّ.

كان يحمل دفتراً أزرق أينما ذهب، الورقة الواحدة في الدفتر مقسمة إلى أعمدة وصفوف، في كل صف كُتبت معلومات أحد مرضاه، رقم المريض، الحالة، موعد العملية إن وجد.. إلخ.

كان بمجرد النظر إلى أحد الصفوف يذكر مريضه ويسرد شيئاً من التفاصيل عنه، يحتفظ بهذا الدفتر كشيء ثمين.

كان ثميناً حقاً، وهو يحمل مرضاه ويجعل المرضى وسائل ليساعدوه في مساعدة مرضى آخرين.

حين يوجد أي مريض مقبل على عمليّة ما، كان يقوم بالشرح له، يفتح معرض الصور في هاتفه، يقوم بالنقر على صور أشعة لمرضى بعد إجراء العملية، يريها المرضى ويرينا، يشرح دون أن يشعر بأنه من غير المهم أن يرى المريض كيف سيبدو منظر الأشعة الخاصة به بعد العملية. بعدها ينتقل للدفتر، الدفتر الأزرق ذاته ليبحث عن مريض آخر تم إجراء العملية ذاتها التي سيجريها هذا المريض الجالس أمامه فيدخل رقم المريض في الجهاز أمامه ويكمل الشرح للمريض، يريه كيف سيكون أفضل بحول الله.

حين سأله أحد المرضى عن شيء ما، ذكر بأنه في تلك الفترة التي يشير إليها المريض لم يكن موجوداً نظراً لوفاة والدته واضطراره للتغيّب عن مرضاه. لم يكن قد مضى على تلك المدة الكثير عن ذلك اليوم.

أحياناً ننسى أن الطبيب في الحقيقة إنسان بالرغم من أننا نطالبه بأن يكون طبيباً إنساناً، أعني أننا ننسى أن هذا الطبيب يمر بفترات فرح وحزن وأن له عائلة وأصدقاء، وحياة أخرى إضافة لحياة الطب الزاخرة بالأحداث. ورغم ذلك فإننا نجد من يضع كل شيء وراء ظهره ما أن يرى أي مريض ممتثلاً أمامه، نطالب بذلك دائماً إلا أنه من الصعب جداً أن يكون، ليس من السهل أن يفعل الأطباء ما يفعلونه حين يؤدون أمانة القسم.

كان يدعو لأي مريض يمر به يحدّث الجميع بهدوء ولطف جم. أحاول أن أتصوّر الدعوات التي يتلقّاها مقابل ما يمارس في كل يوم يستقبل فيه المرضى في عيادة، أو يزور أحدهم وهو على فراشه في أحد الأجنحة.

حين لا يكون هناك مريض بانتظاره، أو حين وجود أحد المرضى كان يستغل الفرص لتعليمنا بصورة أفضل وهو يرينا ويشرح كيف يحدث مرض ما، ما هو التغيير الحاصل في أشعة المرضى المصابين بحالة ما؟ كيف تبدو صور الأشعة بعد إجراء العملية؟ وأي شيء يفعله ليصلح العطب الحاصل في العمود الفقري لمريض؟

كان معلّماً بحق بصورة مبهرة، على خلاف ما رأيت قبل أيام. تبدّد الملل واعتقاد الأسوأ، ووجدتني بالقرب من طبيب أقرب ما يكون للإنسانية في تعاملاته التي شهدتها، بالقرب من معلّم كنت قبل أيام أتحدث عن الملل الذي يجلبه أمثاله وعن السبب الذي يدفع هؤلاء حتى للخوض في طريق التدريس.

كنت مخطئة، أشعر بالخجل لأي شعور تجاهه ولأي كلمة تحدثت بها قبل موعد تلك العيادة، لأني متيقنة بأني لم أعطِه شيئاً من حقه.

الناس مختلفون كثيراً في قدراتهم، والذي قد لا تشعر بأن الله ألهمه كيف ينقل شيئاً من العلم الذي يحمله لمن ينتظرون منه ذلك في موضع ما، قد يبهرك في موضع آخر، ويعلمك أكثر مما كنت تنتظر، يقدّم لك العلم والخلق في لحظة واحدة.

كان لا يتوانى عن محاولة إقناع المرضى في حال ترددهم بأمر ما، لم يشعر بأن أمر إقناع المرضى ليس من شأنه بكل بساطة، لم يكن يلقي بكلماته ويترك للمريض كل الخيار دون أن يناقشه في ذلك، كان يحاول أن يخاطب العقل في كل مريض ليصلا لنقطة مرضية سليمة تصب بلا شك في صالح المريض قبل أي شيء.

"في اللحظة التي ركبتِ فيها السيارة وقدمت إلى هنا، كان احتمال أن تتعرضي لحادث هو – وذكر نسبة عالية لا أذكرها – وبالرغم من ذلك هل نتوقف عن ركوب السيارات والتنقل من مكان لآخر لوجود هذه النسبة؟" هكذا كان يحاول إقناع إحدى المريضات حين سألته عن نسبة حدوث أعراض جانبية لإحدى الوسائل العلاجية وهي متخوفة، وقد بدا أن الأمر سيجعلها غير موافقة.

كانت الحجة منطقية جداً بلا شك، في مكان تكثر فيه الحوادث بشكل كبير وتنهي حياة الكثيرين من الناس. على الأقل بدا وكأنه قد بذل جهداً قاده للتفكير في طرح فكرة كهذه فقط لمحاولة إقناع المريضة بما يرى بحكم خبرته الطبية بأنه أصلح لها.

في اللحظات التي نجد أنفسنا نتسرّع للحكم على شخص ما، علينا فقط أن ندرك أن هناك جانباً ما، مبهراً فريداً يحمله، سواءً ظهر لنا أم ظلّ مختبئاً طوال الوقت، هناك بلا شك مكان وزمان أصلح لأن يظهر جانباً كهذا، وقد لا نكون متواجدين فيهما لحكمة ما.

علمٌ يُنتفع بـه

كم من الوقت يمكنك أن تقتطع لتتوقف مختاراً عن أداء مهامك ومشاغل أيامك، كي تقدّم أمراً هو تطوع بحت؟ التطوع الذي لا يشغل حيزاً في وسائل التواصل الاجتماعي ولا تقوم كل مرة بالكتابة عنه والتصوير أثناء وقبل وبعد حدوثه؟

العمل الذي يطلب منك أن تعطي فقط لأنك تريد، ولأنك اخترت هذا الطريق لتؤديه.

كم من الوقت وإلى أي مدى تستطيع الاستمرار؟ أسبوعان؟ خمسة أسابيع؟ أم عدة أشهر؟

ماذا عن سنوات؟

منذ عام 1982م ابتدأ هذا الطبيب بتقديم جلسات دراسية للطلاب والطالبات الذين يمرون بدورة أحد التخصصات في كلية الطب.

في كل نهاية أسبوع هناك موعد مع هذا الطبيب للعطاء، لمدة ثلاث ساعات في يوم إجازة رسمي يقدُم هو إلى المستشفى ليقدّم شيئاً من علمه.

لا يمكنني أن أتصور عظم الأجر الذي يملكه أمثاله ومقدار العلم الذي نُشر على أيديهم طوال سنوات مضت، هؤلاء الذين تمكنوا من مشاركة العلم الذي وهبهم الله إياه برغبة وصدق، لا كتأدية واجب لجلسات تعليمية مقررة من الكلية فقط. كون الأمر في نهاية الأسبوع فهو أمر اختياري لا يُجبر عليه الإنسان بل يختاره بسمو.

مع كل دورة لهذا التخصص يقدم هذا الطبيب للطلاب أو الطالبات المارين بها جلسات تعليمية يقارب عددها 11 أو تزيد في مجال تخصصه.

"إن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ" هكذا أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم. قد تصنع عملاً مشابهاً لعمل هذا الطبيب في يوم لمدة 8 ساعات على سبيل المثال، ثم تنقطع دون شيء يذكر لك في هذا الجانب بعد ذلك. الاستمرارية تعني استمرارية النفع وعدم حصرها بفئة واحدة أُريدَ لك أن تجتمع بهم في زمن محدد ذات يوم، استمرارية العطاء والتي تجعل منك فرداً منتجاً في مجتمع بصورة فريدة. الاستمرارية تعني أنك تشكر الله على ما تملك وكأنما أنت تحدثهم عن نعمة الله عليك وتخبر أن العلم رسالة وأن الإنسان الذي يكتفي بالعلم لنفسه ولا يمد خير العلم لغيره محروم من خير عطائه وهو يملك كل المقدرة.

أعتقد بأن عملاً كعمل هذا الطبيب يتطلب الكثير من الصبر والعزيمة، يتطلب حب العطاء قبل أي شيء. يتطلب أن يكون الإنسان وقود نفسه كي لا يخسر تلك الرغبة، لأنه حتماً سيجددها طوال الوقت بنفسه دون أن ينتظر أحداً ليشعل رغبته. بقاء الإنسان متعلقاً بمن يجدد فيه الرغبة كل مرة يجعل منه إنساناً بعطاء مشروط فإن لم تتوفر الظروف الكافية لإحياء تلك الرغبة فلا عطاء.

الطبيب بشر يحمل من جوانب الحياة ما يحمله غيره، له عائلة واهتمامات قد تكون بعيدة عن ممارسة الطب، له ما يصيبه بالهم وما يحزنه، له أمانة المرضى الذين قد يبقونه في أحوال مستلقياً لساعات في وقت متأخر من الليل يفكر؛ هل أحسن الصنيع مع أحدهم أم كان من الممكن أن تكون الأمور أفضل مما هي عليه، له انشغال آخر وازدحام برغم ازدحام حياة الطب.

طوال العام الدراسي يعيد هذا الطبيب الجلسات التعليمية في كل مرة على من يمر به، ثلاث مرات كل عام دراسي بعدد جلسات تعليمية، وساعات من الصعب جداً أن تجد من يلتزم بها ويعطي أكثر وأكثر من علمه وخبرته، متحدثاً بنعمة الله عليه.

الطبيب الإنسان 2

الطبيب الذي يعرّف باسمه هنا لمريضه دون أن يسبق ذلك بـ "دكتور" هو إحدى الحالات القليلة من تأملاتي خلال السنوات الخمس الماضية.

كان هذا أول ما رأيته منه في ذلك اليوم. مؤكد أنه لا يعلم لكني منذ ما يقارب العامين أتطلع لرؤيته مع مرضاه، سمعت الكثير وكانت اليوم الفرصة الأنسب لأتأمل ما يصنع.

حملت الكثير من الامتنان والسعادة لهذا اليوم، برغم ثقل دورة الجراحة عليّ طوال مدة مروري بها في هذه السنة، إلا أن اللحظات التي مرت في ذلك اليوم كانت أثيرة جداً، كفاني أن مررت بذلك اليوم وما كان فيه ليعوّض عما مر وما تبقى من أيام دورة الجراحة.

أمثال هؤلاء يعظّمون شعور الأمانة في نفسي بتعاملاتهم اليومية التي اعتادوها. اعتادوها دون أن تكون اعتيادية في محيط كهذا.

هذا الطبيب هو الطبيب الإداري ذاته الذي كتبت عنه في فصل سابق، الطبيب الإنسان ذاته الذي يتركك في حيرة مما يدفعه الضمير لممارسته.

الطبيب ذاته الذي تتطلع إليه وتتمنى أن تحمل كثيراً في مستقبلك المهني منه.

الإحسان في العمل ذاته الذي كنت أشهده في عمله الإداري كان هنا بين جدران غرف العيادات الصغيرة. كان رقيقاً مع مرضاه منصتاً بصورة هادئة ومبهجة.

الطبيب الذي تفكّر في أنك لن تتوجه إلى سواه في حال أُصيب من تحب بعلة ما، هو الطبيب الذي ترى أن علمه وخُلُقه يتنافسان بشكل مرغوب. تتأكد حين تزورك هذه الفكرة أنك أمام

إنسان عظيم، أحد الذين وهبهم الله الحكمة والخلق والإنسانية.

أتأمل ما يفعل وهو يظهر بأن ما يظهر منه كأنما هو أبسط الأمور التي من الممكن أن يمارسها الإنسان، تبدو الأمور عفوية إلى حد لا أصفه.

لا أنسى كيف كان يقوم بالفحص السريري على مرضاه، كيف يعلّمنا ويقوم بالفحص في اللحظات التي لا ينسى فيها أبداً احترام خصوصية المريض برغم اضطرار الأمر للكشف على أحد أجزاء جسد المريض والتي في أي وضع عادي لن يشعر المريض بالارتياح لتعريها، لكن مع مروري بالعديد من الأحداث مع الأطباء ومرضاهم أيقنت أن الطبيب وحده من شأنه أن يجعل تجارب كهذه غير مريحة ومزعجة أو خلاف ذلك. قد يبدو الأمر سهلاً جداً أو أنه من البديهي أن يسعى الطبيب لإزاحة هم مثل هذه المواقف الصغيرة إلا أن الكثير قد لا يصنعون ذلك. البعض قد يأخذ التعليم حجة لفحص المريض بشكل يزعجه كثيراً. ولا إشكال في الحقيقة في إشراك المريض في تعليم الطلاب بكل تأكيد، لكن تعليم غيرك لا ينفي أن يجعلك تُشعر المريض بالارتياح وتظهر له الامتنان على الأقل لموافقته الانضمام لعمليتك التعليمية برحابة صدر.

بعد انتهاء العيادة أخبر بأنه سيقوم بجولة حول المرضى المنوّمين معنا. كنّا في طريقنا إلى المرضى نمشي في ممرات المستشفى وأجنحة المرضى المنوّمين. يمتلك هذا الإنسان قدرة عظيمة على جعل الأمور تبدو سهلة جداً كما ذكرت مسبقاً، إلا أني لا أعتقد في الحقيقة كونها كذلك.

خلال جولتنا ونحن نمر بالقسم الجديد من المستشفى يبحث في بعض الغرف ويخبر عمّا يريدون فعله لتحسين أمر ما، كان يحمل مخطط المستشفى بين يديه ويحاول الجمع بين عملين في الوقت ذاته، إلا أنه عندما يدخل إلى غرفة أي مريض كان يترك أوراقه وقهوته خارجاً ويتحوّل إلى الدور الآخر مباشرة. لم يكن يشعر المريض بأن بين يدي طبيبه أعمال كثيرة وأن المريض فقط أحد الأمور الأخرى التي يتولاها. من يراه مع أحد المرضى قد يعتقد أن هذا المريض هو الهدف الوحيد له والهم الوحيد الذي يحمله.

لم يكن يكتفي بالتأكد من استقرار حالة المريض الطبية، سأظل أذكر تلك المريضة التي قرّب الكرسي إلى سريرها وجلس وهو يتحدث إليها، بدت حزينة وهو يسأل عن أحوالها. أخبرها بأنه لم يعتد أن يراها كذلك، سألها عن البالونات التي كانت هنا مسبقاً بكل لطف وضحكت بالرغم من

أنها كانت تبدو في ضيق لوجودها في المستشفى. سألها ما إن كانت قد تعرفت إلى جيرانها في الغرفة. كانت الزيارة مؤثرة جداً لي. بضع كلمات من شأنها أن تصنع كل الفرق، وقد أبقتني كل كلماته مثقلة طوال ذلك اليوم وممارساته مع مرضاه تتكرر في ذاكرتي بصورة مستمرة، امتلأ الدمع في عينيّ وأنا أتصور كيف لإنسان كهذا أن يترك ألطف وأجمل الأثر فيمن يمرون به. كيف يكرمك الله بأن يمكّنك من أن تختار أن تكون أثراً طيّباً يذكره كل من يمرّ بك، طوال سنوات طلبك للعلم وعملك، في معظم ساعات عملك، كيف يخيرك الله وتختار ذلك، أي هبة أعظم من هذه؟

لا وقت لديكم

"A physician is so powerful. With the tip of your pen you can kill a person & with the same tip of pen you can save a life".

"يملك الطبيب قوة عظيمة جداً، يمكن لك أن تتسبّب في قتل إنسان برأس قلمك وبرأس القلم ذاته يمكنك أن تنقذ حياة إنسان".

دوماً ما يكون حديث هذا الطبيب حكماً تتمنى ألا تنقطع وألا يتوقف عن مشاركتك إياها. كان يخبرنا في إحدى الجلسات التعليمية أننا ربما نعتقد أن أمامنا الكثير من الوقت لنصبح أطباء، ولهذا فلدينا الكثير من الوقت لنتعلم ونتدرب.

"لا وقت لديكم".

كان محقاً، فحين سمعت هذه العبارة منه كنت في سنتي الثالثة في الطب، استشعرت هذه المعاني حين حدثنا، وربما في أوقات أخرى غفلت عن ضيق الوقت وسرعة مروره، المرة الثانية التي سمعت هذه العبارة فيها، كنت في سنتي الخامسة والأخيرة في كلية الطب، وكنت كأنما سمعتها للمرة الأولى بالأمس القريب.

أذهلني ذلك، شعور مهيب مخيف، أن تشعر أنه ليس أمامك الكثير من الوقت، أن الوقت في الحقيقة يداهمك، أشهر قليلة وتصبح الطبيب الذي ينتظر المرضى منه أن يعرف كل شيء ليمارسه ويطبقه ويعلمهم. ولا عذر لديه حينها. الناس والمرضى لن يعذروك فأنت من وضعت نفسك في هذا الموضع، وقد يرى الناس بأنك قضيت الكثير من الوقت داخل أسوار كلية الطب

وأنك بلا شك ملم بكل شيء، قادر على أي تصرف وقرار حكيم. الحقيقة أن الوقت مضى سريعاً، كما قال هذا الأستاذ إننا نعتقد أن لدينا الكثير من الوقت قبل أن نعلق البطاقة التي تعرفنا كأطباء، وفي أحيان نؤجل تعلم بعض الأمور ونحن نحمل الاعتقاد ذاته.

قال لنا ذات يوم إن المسؤولية ليست سهلة، ستكون هناك أوقات لا تستطيعون النوم فيها من الألم، وهناك ليالٍ ستستيقظون من النوم فيها وأنتم تبتسمون لأنكم فعلتم الصواب، لهذا ابدؤوا من الآن، وفكروا في البطاقة التي ستكون معلقة بالمعطف الأبيض. وفي الوقت ذاته كان يطمئننا حين يقول إنك إن فعلت أقصى ما تستطيع فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

هذا لا يعني أن الحمل أقل. ما زال علينا دائماً في كل ساعات العمل أن نعطي أقصى ما يمكننا وزيادة، فلا أحد يتعامل كالطبيب مع روح الإنسان بهذا القرب وبهذه القوة.

كل حديث منه، هو حكمة وحكاية ترغب بلا شك في الاحتفاظ بها، حين تجمعنا به جلسة تعليمية، فإني أدرك وأيقن بأني لن أخرج منها فقط بالعلم ولكن حتماً سيصاحب هذا العلم حكمة وحكايات تحمل بين طياتها دروساً قد تكتسبها وتتعلم منها دون المرور بمواقفها، فتختصر الطريق.

خاتمة

الحكايات ليست بأحداثها فقط، إنما بما تترك فينا. وما يرمي الكتاب إلا إلى هذا الذي قد تتركه كل حكاية في نفس قارئ. فلعل ما يُرمى إليه يكون.

Notes

[1←]

كتبت في بداية سنواتي الإكلينيكية في كلية الطب.